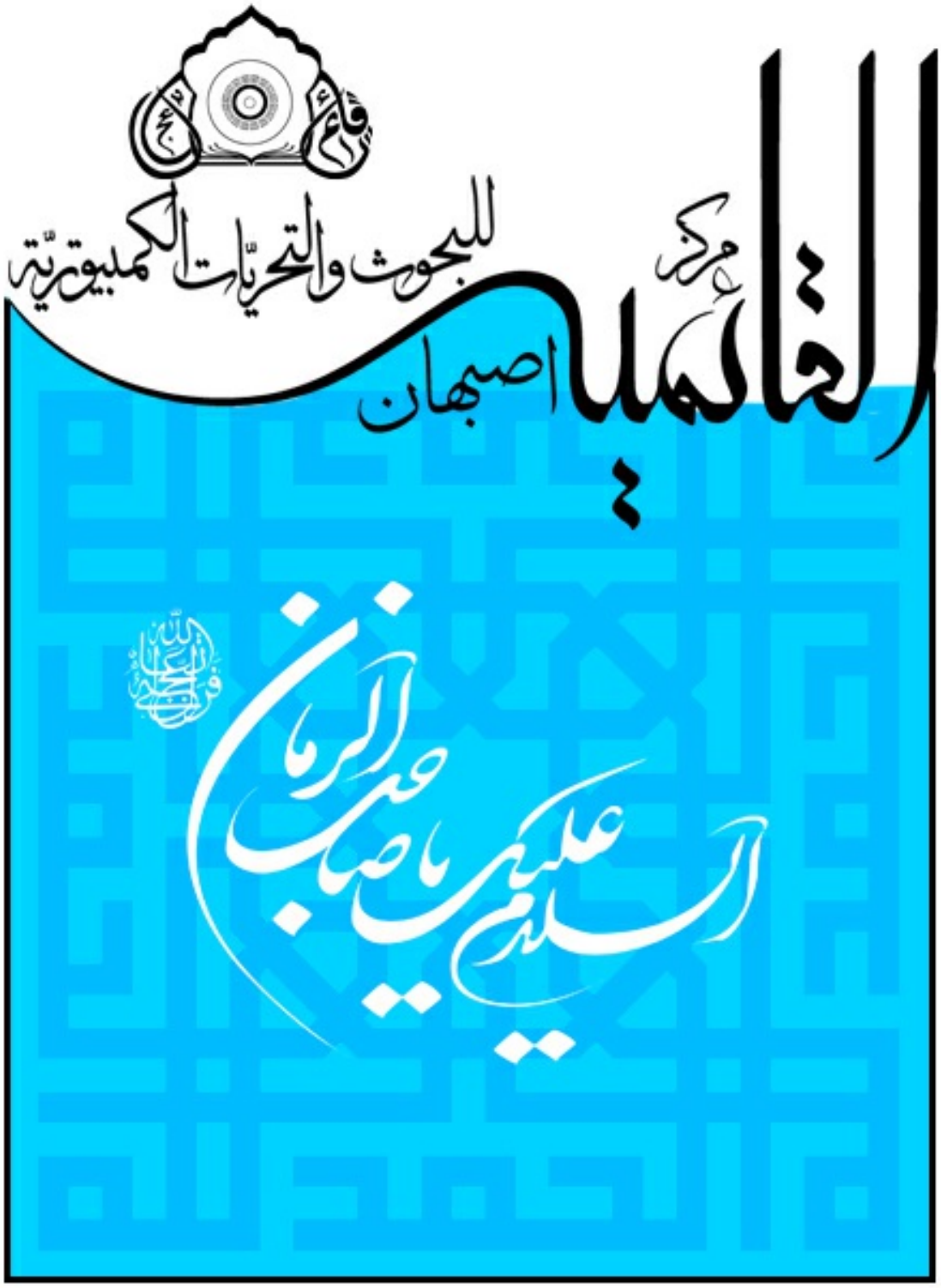

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

الإعجاز العلمي في القرآن

تأصيل فكري وتاريخ ومنهج

سامي أحمد الموصلي

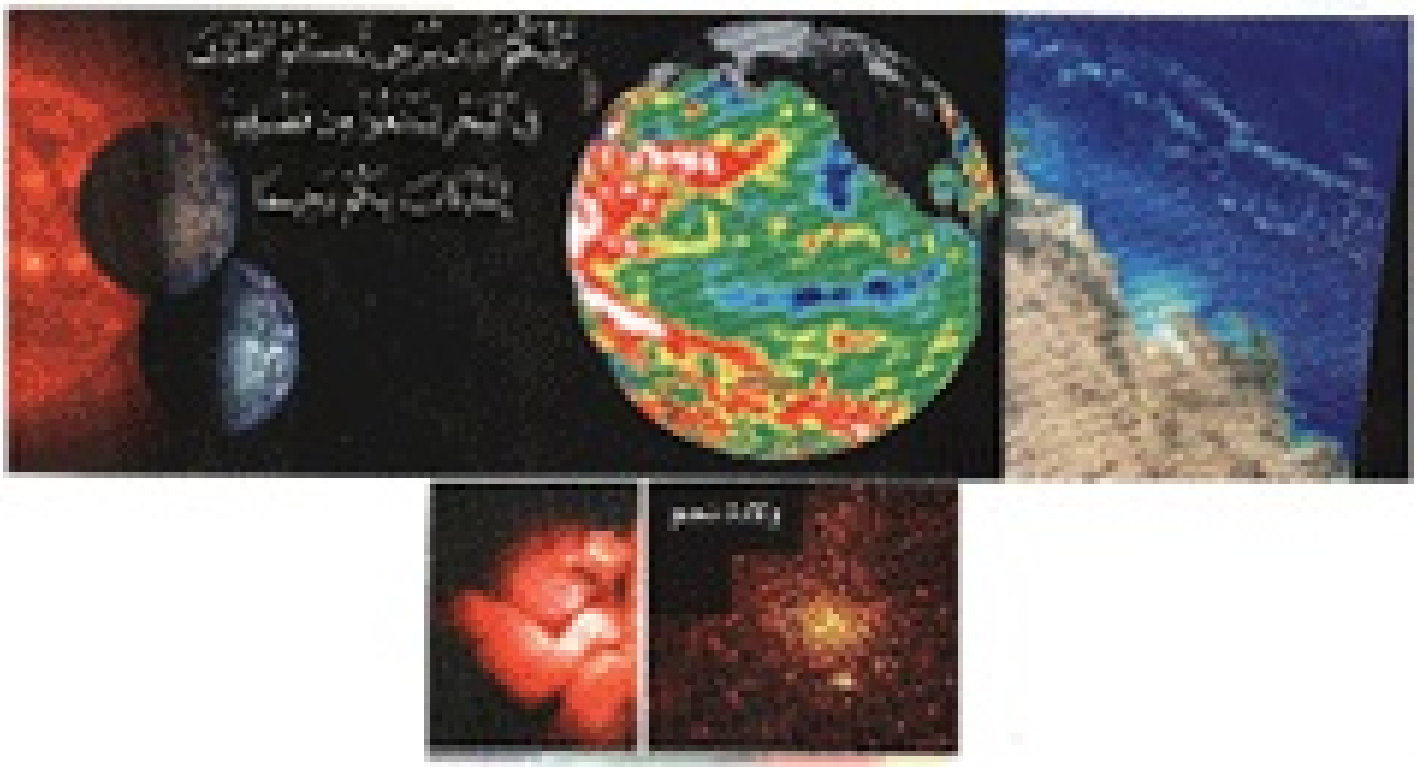

دار النفائس

بسم الله الرحمن الرحیم

الاعجاز العلمى فى القرآن الكريم

كاتب:

سامى احمد موصلى

نشرت فى الطباعة:

دار النفائس

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵

الأعجاز العلمی فی القرآن (للسامی) ----- ۶

اشاره ----- ۶

اشاره ----- ۶

المقدمه ----- ۱۰

المقدمه الفکریه ----- ۱۶

البعد التاریخی ----- ۲۸

التطبیق العملی من نظریه المنهج إلی التطبیقات العملیه ----- ۵۰

اشاره ----- ۵۰

الزوجیه فی الإلکترون،أو الکون و الکون النقیض ----- ۵۷

الکون و الکون النقیض ----- ۶۰

الإعجاز العلمی فی الإسراء و المعراج ----- ۹۲

اشاره ----- ۹۲

۱-معجزه الإسراء و المعراج و تفسیرها لدی القدامی ----- ۹۷

۲-معجزه الإسراء و المعراج و التفسیر العلمی الحدیث ----- ۱۰۱

المصادر و المراجع ----- ۱۱۵

الفهرس ----- ۱۱۷

تعریف مرکز ----- ۱۱۸

الأعجاز العلمی فی القرآن (للسامی)

اشاره

نام کتاب: الأعجاز العلمی فی القرآن(للسامی)

نویسنده: سامی احمد الموصلی

موضوع: اعجاز علمی

تاریخ وفات مؤلف: معاصر

زبان: عربی

تعداد جلد: ۱

ناشر: دارالنفائس

مکان چاپ: بیروت

سال چاپ: ۱۴۲۲ / ۲۰۰۱

نوبت چاپ: اوّل

ص: ۱

اشاره

المقدمه

حینما فکّرت بتألیف هـذا الکتاب کان فی ذهنی تساؤل کبیر یقول:لو أن محمـدا صـلّی اللّه علیه و سـلّم أرسل هذا الیوم فی هذا العصـر،کیف کـان سـیتحدّث للبشـریه المعاصـره؟ و بـأی أسـلوب و بـأیّه مضامین و بأیّه معجزه؟و بصـیاغه أخری للتساؤل:لو أن القرآن الکریم أنزل هـذا الیوم فی هـذا العصـر،کیف سـیکون تحـدّیه کمعجزه لهذا العصـر؟ و کیف سـیتحدث للخلق کلهم بما یجعلهم یسـلّمون له تسلیما بإعجازه المتناسب مع تطوّر البشریه علمیّا الیوم؟ إن هذا السؤال یبدو کبیرا فی أول وهله،و لکن إذا ما تعمّقنـا برسـاله الإسـلام،قرآنا و سـنه،و کونها مرسـله إلی البشـریه جمعاء حتی یوم القیامه،و بأن الإعجاز و المعجزه المطلوبه منها موجـوده و متمثله فی الفهم العلمی للقرآن،علی ضـوء جمیع المکتشـفات و النظریـات و القوانین العلمیه المعاصـره،بـل إن هـذه المعجزه العلمیه ما زالت مفتوحه علی المسـتقبل لکی تحتوی کل المسـتجدّات العلمیه علی مستوی جمیع العلوم،و فی کافه أنواع اختصاصاتها الکونیه و الذریه و البایولوجیه...الخ.إذا ما تعمّقنا بهذا الفهم للقرآن فسنجد أن الجواب واضح و یسیر،بل و قد أشار إلیه القرآن نفسه حینما أکّد علی أنه سیظهر صدقه و حقیقته فی المستقبل بقوله:

سَنُرِیهِمْ آیاتِنا فِی الْآفاقِ وَ فِی أَنْفُسِـهِمْ حَتّی یَتَبَیَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ [فصـلت۵۳/]أی إن القرآن حق بما سـیبرهن علیه الزمن،و هذا ما حصل،و یحصل الیوم و سیحصل غدا، حینما نجد أن القرآن قد أکّد الحقائق العلمیه التی ستظهر بعد نزوله بآلاف السنین، بحیث إذا قرأ العـالم المعاصـر،المتسـلّح بأحـدث نظریات العلوم و قوانینها و اکتشافاتها،القرآن یجـده قـد أشار إلیها إشارات واضـحه،و بعضها فی التفصیل و البیان بحیث لا یمکن صرفها إلی غیر هذه المفاهیم الجدیده المکتشفه.إذن، فالقرآن و معجزته العلمیه التی یتحدّی بها العالم المعاصر تشیر إلی أن القرآن کأنّه یتنزّل الیوم مواکبا لطبیعه العصر،بل و متجاوزا لإمکانیاته الحالیه و المستقبلیه فی هذا

الجانب.فعظمه المعجزه القرآنیه هذه التی تحدّثت لعرب الجاهلیه فأعجزتهم تقف الیوم للتحدث للعقول الألکترونیه،و لعلوم الفضاء و الفلک و الفیزیاء النوویه و الکونیه و للهندسه الوراثیه و الحیویه،بل و لکل العلوم و النظریات و القوانین بلغه تعجزهم بنفس قوه الإعجاز البلاغی للعرب الفصحاء شعراء و خطباء.إن عظمه الرساله الإسلامیه تکمن فی أن المعجزه التی جاء بها الرسول صلّی اللّه علیه و سلّم هی نفس کتابه الذی تضمّن شریعته و عقیدته،و کتابه هو معجزته،و ما دام الرسول صلّی اللّه علیه و سلّم هو خاتم الأنبیاء و الرسل،و ما دام قد أرسل إلی الخلق کافه،من وجدوا فی عصره و من سیوجدون حتی القیامه،إذن یجب أن تکون له معجزه دائمه بدوام الرساله لتدلّ کل عصر علی نبوّته و صدق رسالته،فإذا کان المؤمنون السابقون قد آمنوا بالنّبی حینما رأوه و رأوا معجزاته،فکیف سیؤمن به اللاحقون حتی یوم القیامه إذا لم تکن هناک معجزه حقیقیه قائمه تتحدّی کل أحد أن یأتی بمثلها؟من هنا کان القرآن معجزه دائمه تتحدّی کل عصر و کل زمن و کل جیل،و بما یتقنه و یتفنّن به ذلک العصر و ذلک الجیل،و الیوم،و عصرنا عصر علوم و ثقافه و اکتشافات خارقه،لم یصل إلیها جیل سابق بتاریخ البشریه کله،یقف الإعجاز العلمی للقرآن متحدّیا کل ذلک بما أشار إلیه و تحدث عنه من ظواهر علمیه سبقت عصره الذی أنزل فیه أوّلا بکثیر،و من هنا نری إسلام کثیر من علماء الفلک و الفضاء و الفیزیاء و الکیمیاء و علوم الحیاه..الخ،حینما یطّلعون علی آیات القرآن التی تخص علومهم،بل و تتجاوزها إلی مستقبل أرحب، حتی قام أحدهم بدراسه جمیع الکتب المقدسه،علی ضوء آخر اکتشافات العلوم و أحدث القوانین العلمیه،فسقطت جمیعها،لتحریفها عبر الزمن،و بقی القرآن شامخا صادقا و دلیلا و حجه علی هؤلاء العلماء و غیرهم ممن یبحثون فی أسرار الکون و الطبیعه و الإنسان.

لقد قال اللّه تعالی فی کتابه العزیز: إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنّا لَهُ لَحافِظُونَ [الحجر۹/]، و نحن نجد الیوم صدق هذه الآیه بلا نقاش أو جدال،فلم یزد فی القرآن أو ینقص منه حرف واحد بعد ألف و أربعمائه سنه علی نزوله،و رغم أنه لم یجمع فی حیاه النبی صلّی اللّه علیه و سلّم، بل جمع بعد وفاته،و مع ذلک فقد حفظه اللّه حفظا لیبقی حجّه و دلیلا و هادیا علی ساحه الزمن کله،أ لا یکفی أن تکون هذه الآیه نفسها دلیل صدقه و إعجازه؟لقد قال هذا القول قبل ألف و أربعمائه سنه،و ها هو الیوم،کما هو منذ ذلک الزمن حتی الآن،رغم المحاولات العدیده لتحریفه و الزیاده و النقصان فیه.لقد قال تعالی فی قرآنه وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ سَیُرِیکُمْ آیاتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَ ما رَبُّکَ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ [النمل۹۳/]،و ها نحن الیوم

نرى آيات اللّه فى حقائق و أسرار الكون و الحياه مما لم يره من سبقنا،بل و لم يخطر ببالهم أن يصل العلم البشرى إلى هذا المستوى المتقدّم كثيرا جدا مقارنه بما كان عليه علم البشر سابقا!أ فلا يصدق القرآن اليوم كصدقه فى الأمس،فيكون معجزه هذا العصر كما كان معجزه العصر العربى الأول فى زمن الرساله؟أ لم تعرف فعلا آيات اللّه اليوم بما لم يعرفه السابقون؟أ ليس هذا بدليل على أن القرآن كأنما يتنزّل اليوم على عصرنا بلغه علمنا،و يتحدث إلينا بالبيّنه و البرهان،كما كان يتحدث للسابقين؟إذن فلو أرسل الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم اليوم فستكون معجزته هى القرآن نفسه كما نجده اليوم،و كما نفهمه مصداقا لقول القرآن نفسه من أننا سنرى آيات اللّه فنعرفها و نعرف صدقه بها إعجازا من اللّه و حجه على الخلق أجمعين.

فما أعظمه من كتاب،و ما أعظمها من معجزه لم يكن مثلها لنبى أو رسول غير خاتم الأنبياء و المرسلين،و هكذا يحق لأحد الكتّاب و المؤلفين أن يقول:«إن الكتاب الذى يحق له أن يحكم العالم لا بد أن يتّصف بأنه ليس بحاجه إلى تعديل أو إضافه لأن أحكامه يقينيه،بمعنى أن كلّ علاقه يعقدها بينه و بين الحياه لا بدّ أن تكون علاقه تخضع كل تجارب الناس،و كل علاقاتهم بالحياه للفوز المبين المعقود على نواصى كلماته».

لكلّ ذلك فمهما بالغ المبالغون فى وصف القرآن فإنهم لن يبلغوا حقه فى وصفه،أ ليس هو كلام اللّه،و اللّه ليس كمثله شىء،فكيف يجب أن يكون و هو صفه من صفات اللّه فى كلامه؟أ لم يصفه الرسول الكريم صلّى اللّه عليه و سلّم وصفا ما بعده مجال لمبالغ فى قول،و لا لمتحدّث فى خطاب حينما قال(كتاب اللّه تبارك و تعالى فيه نبأ ما قبلكم و خبر ما بعدكم و حكم ما بينكم،هو الفصل ليس بالهزل،من تركه من جبار قصمه اللّه،و من ابتغى الهدى فى غيره أضلّه اللّه،هو حبل اللّه المتين و نوره المبين و الذكر الحكيم و هو الصراط المستقيم،و هو الذى لا تزيغ فيه الأهواء و لا تلتبس فيه الألسنه و لا تتشعب معه الآراء،و لا يشبع منه العلماء و لا يملّه الأتقياء،و لا يخلق على كثره الرّد،و لا تنقضى عجائبه،و هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إِنّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً [الجن ١/]من علم علمه سبق،و من قال به صدق،و من حكم به عدل،و من عمل به أجر،و من دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم).

فمهما حاولنا،بقصور عقلنا البشرى،أن نصل إلى نهايه إعجازه فى كل باب من أبواب الإعجاز العديده فسنبقى فى حدود قول اللّه تعالى وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاّ قَلِيلاً [الإسراء٨٥/].فإذا كنّا عن فهم حقيقه العالم و الطبيعه و الكون و الحياه

و الوجود عاجزين،و هم من ماده الحياه و الوجود نفسها التى نحن منها مخلوقون، فكيف سنستطيع أن نفهم صفه من صفات اللّه تعالى حق فهمها و هى كلامه و كتابه، و هما ليسا من ماده هذا الوجود و لا من طبيعه ماده الحياه و الكون الذين قتلناهم بحثا و تعمّقا،و استعملنا كل المختبرات و التلسكوبات و الميكروسكوبات،و صعدنا إلى أعماق الفضاء بأجهزتنا فضعنا فى مداه الواسع اللانهائى،و تعمقنا فى مفردات الذره و جسيماتها الأوليه حتى عجزت وسائلنا،على عظمتها،أن تقودنا إلى الحقيقه،فى حين أن القرآن،و بلغه و حروف البشر العاديه نفسها،يصف لنا نهايه هذه النظريات الكونيه و الذرّيه،و يصف لنا الحقيقه واضحه بيّنه.إن خالق الكون هو الذى يتحدّث عن كونه،فهو الذى يعرف ما خلق و من خلق أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [الملك۱۴/]فإذا تحدّث فحديثه الصدق و الحق و العدل،و بذا يكون القرآن قد أجاب على كل الأسئله التى طرحها العقل البشرى على نفسه منذ أعماق الحضاره الإنسانيه و الفلسفه اليونانيه حتى آخر التساؤلات التى يقف العلم المعاصر على عظمته مبهوتا بها.لقد تساءل الإنسان(بكيف)عن كثير من مفردات الطبيعه و ظواهرها،و أجاب القرآن عنها جوابا نهائيا لا لبس فيه و لا ضياع،و التقى العلم المعاصر فى إجابته مع ما قاله القرآن منذ ألف و أربعمائه سنه لقاء مباشرا.كما تساءل الإنسان عن ماهيّه الأشياء و حقيقتها،و ما هو الوهم،و ما هو الصدق فيها،بعيدا عن هلوسات العقل و خرافاته،فأجاب القرآن عنها منذ ألف و أربعمائه سنه،و إذا بالعلم يلتقى مع آخر اكتشافاته،و بعد جهد كلّف الإنسان كثيرا من حياته و ماله و صحته مع ما قاله القرآن.

و كذلك بحث الإنسان عن نفس الإنسان و أعماقها و مشاعرها،و ألّف كتبا و وضع علوما لكل ذلك،و مع أنه ما زال خاطئا و عاد خاسرا حيث تبخّرت حقائق النفس المفترضه لديه لم يجده البحث شيئا،و لو عاد للقرآن لوجد الجواب الشافى عن كل أسئلته و تساؤلاته التى جعلته يضيع حياته و عمره سدى فى هذا المجال،فى حين أن حكمه اللّه من خلقه كانت وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ [الذاريات۵۶/]،فلو عبده بما علّمه لأعطاه اللّه علم ما لم يعلم،فهو قد كلّفه بالعباده و أعطاه علمها،فلو أدّى ما كلّف به لأعطاه اللّه حقيقه كل شىء من خلال هذه العباده،و لعلم أن علم اللّه أكبر من خلق اللّه،و لا يحيط بعلمه شىء و هو يحيط بكل شىء،و هكذا نرجع إلى ما قاله اللّه تعالى واصفا علمه بكلامه و كلامه بعلمه وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَهُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللّهِ [لقمان۲۷/].فليكفّ الإنسان عن أن يكون أكثر شىء جدلا،و يسلّم أمره إلى اللّه فسيجد ربه بانتظاره حيث

يعطيه علما من علمه حتى يبطل مفعول السؤال فى نفسه،فلا يسأل بعد أن علم،و لا يتجاهل بعد أن أسلم،و يرى حقيقه ما قاله أحد الباحثين فى القرآن:«فى العالم كله كتاب واحد قدّم للناس جميعا حقائق العلم قبل أن تثبت فى معارك العلاقات بين الوعى البشرى و بين ماده الكون،ذلكم هو القرآن»،و عند ذلك سيعجب كما عجب عقلاء العالم«إن عقلاء العالم ليعجبون كيف يكون فى عالم الناس القرآن و لا يجعلونه قبلتهم جميعا لفهم الحياه و تفسيرها و معرفه الحقيقه و العمل بها».

إن هدف هذا الكتاب هو الجواب على هذه الأسئله من خلال المحاولات التى تمّت فى مؤلفات العلماء لتحقيق هذا الجواب،فهل استطاعوا الجواب حقّا،ففهموا القرآن كمعجزه علميه معاصره و كما يجب أن تكون حجه اللّه على خلقه فى هذا العصر؟و كأنما الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم أرسل هذا اليوم به،و كأنما القرآن ينزل الآن بيننا و لا زال بكرا لم تتعمّق به العلوم كما يجب،رغم كل محاولات القدماء و مبالغاتهم العقليه و اللغويه التى وقفوا عندها،و قد جاء عصر المختبرات العلميه الفضائيه و النوويه لكى يقول كلمته فى هذا المجال،فهل وصل إلى الجواب الحق!و إلى الفهم الحق لكلام اللّه و قرآنه الذى بيّنه اللّه بيانا واضحا مفصّلا لكل شىء،و فيه علم كل شىء؟.

المقدمه الفكريه

ضروره المعجزه بين مفهوم

شموليه الرساله و خاتم النبيين

حينما نراجع بعض خصائص نبوّه سيدنا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم الذى أظهره اللّه على الدين كلّه و أكّد اللّه سبحانه و تعالى فى قرآنه الحكيم أنه أكمل له الدين اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً [المائده۳/]،نجد أن هناك تفرّدا و تميزا لهذه النبوه لم يكن مثلها لأحد من الأنبياء السابقين على كثرتهم،هذا التفرد و التميز يظهران من خلال خصوصيتين اثنتين أكدهما اللّه سبحانه و تعالى فى قرآنه المجيد،و تحدّث عنهما الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم فى عده أحاديث.أما الخصوصيه الأولى فهى فى كونه صلّى اللّه عليه و سلّم أرسل إلى الناس كافه وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلاّ كَافَّةً لِلنّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ [سبأ۲۸/]،و يقول الرسول الكريم فى حديثه (۱)(أعطيت خمسا لم يعطهن نبى قبلى،نصرت بالرعب مسيره شهر،و جعلت لى الأرض مسجدا و طهورا،فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاه فليصلّ،و أحلّت لى الغنائم و لم تحل لنبىّ قبلى،و بعثت إلى الناس كافه،و أعطيت الشفاعه)،و معنى هذه الخصوصيه أن الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم،دون غيره من الأنبياء،أرسل إلى الخلق كلهم،سواء كانوا إنسا أو جنّا،و سواء كانوا عربا أم عجما،فى حين كان الرسول حين يرسل قبله يرسل إلى قومه فقط.و الخصوصيه الثانيه من خصائص نبوته هى كونه خاتم النبيين، فلا نبوّه و لا نبى،بعده،قال تعالى ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَ لكِنْ رَسُولَ اللّهِ وَ خاتَمَ النَّبِيِّينَ [الأحزاب۴۰/]،و يقول الرسول الكريم فى حديثه (۲)(مثلى و مثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا فأكملها و أحسنها إلا موضع لبنه،فكان كل من دخلها فنظر إليها قال ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنه،فأنا موضع هذه اللبنه،ختم بى الأنبياء)،و يقول فى حديث آخر (۳)(أنه سيكون من أمتى كذابون ثلاثون كلّهم يزعم

۱- الشفا بتعريف حقوق المصطفى-القاضى عياض،ج ۱،ص ۳۲۹.

۲- مختصر تفسير ابن كثير-محمّد على الصابونى،ج ۳،ص ۱۰۰.

۳- الدر المنثور فى التفسير بالمأثور-السيوطى،ج ۳،ص ۱۰۰.

أنه نبی،و أنا خاتم النبیین،لا نبی بعدی).

إذن،فمن معانی شمولیه الرساله الإسلامیه للخلق کلهم منذ بعث الرسول صلّی اللّه علیه و سلّم حتی قیام الساعه أن تکون هذه الرساله هی خاتمه الرسالات،و بالتالی یجب أن تکون کامله لا تحتاج إلی نبی آخر یرسل لیستدرک علی رسولنا الکریم ما فاته،کما هی حال جمیع الرسل السابقین الذین کان النبی اللاحق یستدرک علی النبی السابق فینسخ من شریعته ما ینسخ بأمر اللّه،کما أنّ من معانی خاتم النبیین أن یکون مرسلا و داعیا جمیع الخلق،حتی بعد وفاته،إلی طریق اللّه،و أن یکون دلیل صدق نبوّته قائم علی الأجیال اللاحقه حتی قیام الساعه،و لا یکون هذا إلا بأن تکون له معجزه قائمه دائمه تبرهن علی صدقه و صدق رسالته إلی هذه الأجیال،و تتحدی،کمعجزه، کل العصور و الأزمان حتی قیام الساعه.

لقد دعا الرسول الکریم فی حیاته جمیع الخلق الذین عاصروه فی حیاته إلی الإیمان باللّه،و آمن به من آمن من الإنس و الجن کما هو مذکور فی القرآن وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَیْکَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ یَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمّا قُضِیَ وَلَّوْا إِلی قَوْمِهِمْ مُنْذِرِینَ [الأحقاف۲۹/].فقد أدی الأمانه کما أمره اللّه بها،و توفی الرسول صلّی اللّه علیه و سلّم و ارتد من العرب من ارتدّ،ثم بعد حروب الرده رجع إلی الإسلام من رجع،و کانت معجزه الرسول صلّی اللّه علیه و سلّم هی القرآن،و کانت تتحدّی العالم کله إنسا و جنا منذ نزولها و ستبقی حتی قیام الساعه،تقوم بعملیه التحدی لأن یؤتی بمثلها،و هکذا فإن الرسول الکریم بصفته خاتم الأنبیاء،جاء بمعجزه قائمه دائمه مستمره فی تحدّیها،و لا تنتهی عجائبها حتی یرث اللّه الأرض و من علیها.

إذن،فالقرآن العظیم هو المعجزه الدائمه للرسول صلّی اللّه علیه و سلّم،و هو الذی علیه أن یتعامل مع مختلف الأجیال الإنسانیه و مختلف الحضارات اللاحقه لعصر النبوّه و مختلف المستجدات التی تحصل للإنسان و الکائنات عموما،و مهما توصّل الإنسان فی أبحاثه و علومه و اکتشافاته فعلی القرآن أن یبقی معجزا فی کل هذه الأحوال و الأماکن و الموضوعات،فکیف یکون ذلک الإعجاز و القرآن کلمات معدوده لمعانی فسّرها المفسرون القدامی و أشبعوها بحثا؟کیف یکون ذلک الإعجاز و قد ذهبت الفصاحه و البلاغه مع أهلها فی ذلک الزمان،و ذهب التحدی القائم علیها،و الذی کان أساس الإعجاز فی نزول القرآن أوّلا علیهم؟کیف سیکون الإعجاز و هو دلیل صدق نبوه النبی،و دلیل کون القرآن من اللّه معا إذا کان العصر،مثل عصرنا،عصر معرفه و علوم و تکنولوجیا و اکتشافات فی الفضاء و الذره و الحیاه؟أ لیست المعجزه و کل معجزات

الأنبیاء السابقین کانت کذلک،علیها أن تتحدی کل عصر بما یتقنه ذلک العصر و یتفنن فیه و یحس بعظمته و کبریائه من خلاله؟أ لم یتحدّ موسی علیه السلام سحره فرعون بعصاه لأن العصر کان عصر سحر و سحره؟أ لم یتحدّ عیسی علیه السلام طب الیونان و أطباء عصره حینما جاءهم بشفاء و إحیاء لم یکن و لن یکون مثله أبدا؟ و أخیرا،أ لم یتحدّ نبینا علیه الصلاه و السلام شعراء و خطباء قریش و العرب جمیعا حینما جاء ببلاغه القرآن بنفس لغتهم،و نفس حروفها و کلماتها و لکن بإعجاز جعل أشعر الشعراء و أخطب الخطباء إذا سمعه بهت و أعلن عجزه و آمن بأنه من عند اللّه! لقد أدی القرآن العظیم وظیفته خیر أداء فی تعجیز کل العرب الذین حضروه و عاصروه عن أن یأتوا بسوره من مثله،و هم أهل اللغه و الفصاحه و البلاغه التی لم یلحقهم بها أحدا! و علی القرآن وظیفه أخری الآن لکی لا یتم الحدیث عن أن المعجزه انتهت بانتهاء عصر من خاطبتهم بلغتها،و تحدّتهم آنذاک و أصبحت الآن خبرا یروی کباقی معجزات الأنبیاء مع أقوامهم،هذه الوظیفه تأتیه من کونه جاء معجزا لکل من الإنس و الجن،و لکل زمان و مکان،لأنه لا نبی بعد خاتم الأنبیاء،و لا معجزه و لا وحی و لا رساله،و علیه هو،باعتباره معجزه خاتم الأنبیاء الذی أرسل للخلق کافه،أن یقوم بهذه المهمه و أن یکون حجّه اللّه البالغه علی العالمین فی کل عصر و حین و حتی قیام الساعه! لقد مضت أجیال و أجیال،و جاءت و تجیء أجیال أخر تطالب بحجتها و برسولها و معجزتها وَ إِنْ مِنْ أُمَّهٍ إِلاّ خَلا فِیها نَذِیرٌ [فاطر۲۴/]و إلا فما ذنبهم أن یکونوا متأخرین عن عصر الرسل و ختمت النبوه قبلهم؟أ یعذب اللّه الناس یوم القیامه قبل قیام الحجه علیهم؟حاشا للّه.

من کل ما تقدم،نجد أن القرآن هو المعجزه الخالده التی تبقی عامله عملها کما نزلت فی حیاه الرسول الکریم صلّی اللّه علیه و سلّم،و بنفس القوّه المتحدّیه لکل عصر،و یفخر بما یقول أحد الباحثین (۱):«إذا قدر أن یبحث العلم الأدیان عن طریق بحث ظاهره النبوّه،فسیجد أن العقبه فی سبیله هی أن معجزاتها قد مرّت و انقضت،فهو لا یجد سبیلا إلی بحث شیء منها إلا معجزه واحده لرسول واحد علی دین واحد،إلا القرآن معجزه الإسلام علی ید محمد بن عبد اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم ...لقد ذهبت المعجزات کلها».

۱- الإیمان و العلم الحدیث،ص ۱۴۰.

و بقی،و تغیرت الکتب و حرّفت و لم یتغیر هو و لم یتحرّف،فلو قدر للإنسانیه أن تفحص الأدیان بعقلیه علمیه لما وجدت غیر الإسلام دینا یثبت للفحص العلمی،إذ لیس غیر الإسلام دینا بقیت معجزته إلی الیوم و تبقی إلی ما شاء اللّه،لتکون موضوع بحث و امتحان له یهتدی البشر بفحصها إلی اللّه،و لعلموا عن طریقها أن الإسلام هو دین اللّه فاطر الفطره و خالق الناس».إذن،فالقرآن هو معجزه محمد صلّی اللّه علیه و سلّم،و هو بنفس الوقت کتاب رسالته ذاتها«لقد جعل کتابه عین معجزته،و معجزته عین کتابه لیکون حفظ الدین و حفظ معجزته أمرا واحدا سواء،و لتدوم حجه اللّه علی الناس».

علی أنه یجب أن یتضح إعجاز القرآن لکل إنسان لتلزمه حجه اللّه إن هو أبی الإسلام،لذا فإن معجزه القرآن لیست من تلک الناحیه التی یتوقف تقدیرها و التسلیم بها علی معرفه لغه لا یتیسر معرفتها لکل أحد،و تلک الناحیه الإعجازیه هی الناحیه العلمیه فی القرآن...أی أن الحقیقه العلمیه التی لم تعرفها البشریه إلا فی القرن التاسع عشر أو العشرین مثلا،و التی ذکرها القرآن لا بد أن تقوم عند کل ذی عقل دلیلا محسوسا علی أن خالق الحقیقه هو منزّل القرآن...

إن موقف القرآن،کمعجزه الیوم لعصرنا،هو نفس موقفه کمعجزه فی عصر النبی صلّی اللّه علیه و سلّم،و لا یتوقف کمعجزه إلا إذا استطاع العصر أن یتجاوزه فیما جاء به من صور الإعجاز العدیده،عند ذلک تتوقف حجه اللّه علی العالمین،فإما أن یرسل رسولا- آخر،و هو قد قال إنه لیس هناک رسول بعد خاتم النبیین،أو یرسل معجزه تتحدّی من لا- یؤمن بها،و هو ما لم یحصل.إذن،فالقرآن کان و ما زال و سیبقی حجه اللّه علی العالمین،و لکن علینا نحن أن نعرف مواضع و مواقع إعجازه لعصرنا لکی تستمر الرساله و کأنها جاءت الیوم.لننظر إلی منطق علماء الإسلام السابقین فی طریقه فهمهم لنبوه النبی و معجزه القرآن،و کیف کانت تعمل عندهم،و نقارنها بمنطق علماء الیوم فی نظرتهم و فهمهم لنبوّه النبی و معجزه القرآن؟ یقول الباقلانی فی إعجاز القرآن إن نبوّه النبی صلّی اللّه علیه و سلّم معجزتها القرآن (۱):«الذی یوجب الاهتمام التام بمعرفه إعجاز القرآن أن نبوّه نبینا علیه الصلاه و السلام بنیت علی هذه المعجزه»،و یصف هذه المعجزه بقوله«فأما دلاله القرآن فهی عن معجزه عامه عمّت الثقلین،و بقیت بقاء العصرین،و لزوم الحجه بها فی أول وقت ورودها إلی یوم القیامه علی حد واحد».و لکن هل یمکن إدراک الإعجاز بسهوله حتی و إن۱.

۱- إعجاز القرآن-الباقلانی،ص ۳۱.

كان إعجازا لغويا فقط كما كانوا يظهرون؟يقول الباقلانى (۱):«يجب أن تعلم أن من حكم المعجزات إذا ظهرت على الأنبياء أن يدّعوا فيها أنها من دلالاتهم و آياتهم، لأنه لا يصح بعثه النبى من غير أن يؤتى دلاله و يؤيّد بآيه،لأن النبى لا يتميز من الكاذب بصورته و لا- بقول نفسه و لا- بشىء آخر سوى البرهان الذى يظهر عليه، فيستدل به على صدقه،فإذا ذكر لهم أن هذه آيتى و كانوا عاجزين عنها صحّ له به ما ادّعاه،و لو كانوا غير عاجزين عنها لم يصح أن يكون برهانا له،و ليس يكون معجزا إلا بأن يتحداهم إلى أن يأتوا بمثله،فإذا تحدّاهم و بان عجزهم صار ذلك معجزا، و إنما احتيج من باب القرآن إلى التحدى لأن من الناس من لا- يعرف كونه معجزا، فإنما يعرف إعجازه بطريق،لأن الكلام المعجز لا يتميز من غيره بحروفه و صوته، و إنما يحتاج إلى علم و طريق يتوصل به إلى معرفه كونه معجزا،فإن كان لا يعرف بعضهم إعجازه فيجب أن يعرف حتى يمكنه أن يستدل به».

إذن،فالسابقون كانوا يحتاجون لمعرفه الإعجاز إلى دراسه و علم،رغم أن الإعجاز كان عندهم لغويا أكثر منه علميا و نظريات علميه،فكيف الحال عندنا فى الإعجاز العلمى؟ مما تقدم،نرى أن الأقدمين لم يكونوا يعرفون الإعجاز بداهه بعد أن مضى عصر النبوه و بدأت الأبحاث فى علوم القرآن تنتشر،و دخل كثير من غير العرب فى الإسلام،و هم لهم ثقافات و علوم ليست للعرب،كما أنّ الفصاحه و البلاغه دخلها ضعف كثير،من هنا كان يجب أن تقوم المؤلفات الكبيره لمعرفه إعجاز القرآن، فالذى لا- يعرف إعجاز القرآن لا يصدّق أنه من اللّه،و قد يعتبره كتابا من الكتب لأنه مؤلّف من حروف و كلمات و موضوع بين دفتى ورقه،أما من يعرف إعجازه فإن إيمانه يتكامل مع القرآن على أنه كلام اللّه و معجزه رسول اللّه،و أنّ فيه اليقين الحق الذى لا يقين غيره،و من هنا أيضا تعددت أوجه إعجاز القرآن حتى عند القدماء أنفسهم الذين كان التحدى الأول لهم بلغته و بلاغته و معانيه،و لكن من أعجب العجب فى هذا القرآن العظيم،الذى جاء من ربّ العالمين لهدايه الناس أجمعين، أنه يدلّل على صدقه بنفسه فى كل عصر و حين،و يقول إنه سيفعل ذلك حتى يذعن له كل عقل سليم،و كل عالم و حكيم،بل و يزيد على ذلك بأن يعطى و عودا مستقبليه لما يحققه من إعجاز عبر كل زمن و عصر،بما يحمله ذلك العصر و الزمن من۸.

۱- إعجاز القرآن-الباقلانى،ص ۲۵۸.

اختصاص و تقدم فی مجاله الذی یبدع فیه و یفخر،یقول ابن تیمیه (۱):«لما کان محمد صلّی اللّه علیه و سلّم رسولا إلی جمیع الثقلین جنّهم و إنسهم،عربهم و عجمهم،و هو خاتم الأنبیاء لا- نبی بعده،کان من نعمه اللّه علی عباده،و من تمام حجته علی خلقه،أن تکون آیات نبوّته و براهین رسالته معلومه لکل الخلق الذین بعث إلیهم،و قد یکون عند هؤلاء من الآیات و البراهین علی نبوته ما لیس عند هؤلاء،و کان یظهر لکل قوم من الآیات النفسیه و الأفقیه ما یبین به أن القرآن حق،کما قال تعالی قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کانَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ ثُمَّ کَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِی شِقاقٍ بَعِیدٍ(۵۲) سَنُرِیهِمْ آیاتِنا فِی الْآفاقِ وَ فِی أَنْفُسِهِمْ حَتّی یَتَبَیَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ یَکْفِ بِرَبِّکَ أَنَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ [فصلت۵۲/،۵۳].أخبر سبحانه أنه سیری العباد الآیات فی أنفسهم و فی الآفاق حتی یتبین لهم أن القرآن حق،فإن الضمیر عائد إلیه،إذ هو الذی تقدم ذکره کما قال قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کانَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ ثُمَّ کَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِی شِقاقٍ بَعِیدٍ [فصلت۵۲/].و رغم أن التحدی الذی جاء به القرآن أن نزل إلی حدود أن طلب منهم أن یأتوا بسوره من مثله،و قد تکون السوره ثلاث آیات فقط، مثل إِنّا أَعْطَیْناکَ الْکَوْثَرَ [الکوثر۱/]،و رغم أنه کانت دواعی العرب و غیرهم علی المعارضه تامه،رغم کل هذا فقد انتفت المعارضه،و علم عجز جمیع الأمم عن معارضته،و هذا برهان آخر یعلم به صدق هذا الخبر الذی هو بنفس الوقت آیه لنبوه النبی صلّی اللّه علیه و سلّم».

أما تعدد وجوه إعجازه عند الأقدمین فیظهر بأشکال مختلفه و متعدّده و متنوعه، و کل شکل له وجه إعجازی قائم بنفسه،و لکی لا- نطیل نشیر إلی هذه إشاره عابره و إلا فکتب الإعجاز کثیره،من ذلک ما ذکره ابن تیمیه من أن (۲)«کونه معجزا یعلم بأدلّه متعدّده،و الإعجاز فیه من وجوه متعدّده،فتنوّعت دلائل إعجازه،و تنوّعت وجوه إعجازه،و کل وجه من الوجوه،فهو دلیل إعجازه و هذه جمل لبسطها تفصیل طویل،و لهذا قال تعالی: وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآیاتُ عِنْدَ اللّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِیرٌ مُبِینٌ(۵۰) أَ وَ لَمْ یَکْفِهِمْ أَنّا أَنْزَلْنا عَلَیْکَ الْکِتابَ یُتْلی عَلَیْهِمْ إِنَّ فِی ذلِکَ لَرَحْمَهً وَ ذِکْری لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ [العنکبوت۵۰/،۵۱]فهو کاف فی الدّعوه و البیان و هو کاف فی الحجج و البرهان».

إذن،فمجرد إنزال القرآن علی الرسول هو معجزه،لأن ما فی القرآن من مضامین۲.

۱- تفسیر ابن تیمیه-ج ۲،ص ۱۳۹.

۲- المصدر السابق،ج ۲،ص ۱۴۲.

تکفی للرد علی کل الحجج و الاعتراضات،کما أنها تکفی لتدلّ و توضح و تبرهن علی حقیقه الدعوه و أنها من اللّه،و تعطی لکل عصر دلیلا یناسبه،و تتحدث لکل قوم باللغه التی یفهمونها علما و فقها و حجه و بیانا.

و إذا ما جئنا إلی البحوث المعاصره و العلماء المحدثین نجد أن قوّه الدلیل لدیهم فی الإعجاز القرآنی،و بما یناسب العصر الحاضر،هی بنفس القوّه التی کانت لدی القدماء السابقین من العلماء،و رغم اختلاف طبیعه دلیل کل منهم،یقول شعراوی (۱):«أما الإسلام فلأنه دین خاتم و شامل للبشریه کلها،فلا یمکن أن تکون معجزته حسّیه تنتهی کسابقاتها،فخص اللّه رسوله صلّی اللّه علیه و سلّم بمعجزه تماثل قدر رسالته علو زمان و علو مکان،بحیث أن أی إنسان یؤمن علی مرّ الزمن بمحمد یستطیع أن یقول أنا أؤمن بمحمد و هذه معجزته،و تابع عیسی لا یستطیع أن یقولها لأن التاریخ هو الذی حدثنا عن معجزه عیسی».

و لما کان طابع العصر،الذی نعیش فیه الیوم،هو طابع البحوث و الاکتشافات العلمیه المتعدده فی کافه جوانب الکون و الحیاه،و لما کان کبریاء العالم و قوته الیوم یقوم أساسا علی مقدار التقدم الذی توصلت إلیه البشریه فی هذا الجانب،کان علی القرآن،باعتباره معجزه لکل زمان و مکان،أن یظهر إعجازه فی هذا الجانب لیکشف للعالم تقدّمه و سبقه فی الإشاره و التوضیح إلی الحقائق العلمیه التی توصّل إلیها العلم الیوم،بعد أن کان هو قد ذکرها قبل أربعه عشر قرنا،و من هذا کان ما یسمی بالإعجاز العلمی للقرآن کلغه معاصره یتحدث بها القرآن إلی الإنسانیه جمعاء،لیدلل علی صدقه و صدق نبوّه رسولنا الکریم من خلاله،و لیتحدث للإنسانیه الیوم بلغتها لیقیم الحجّه علیها بنفس قوه الحجه التی أقامها علی العرب أیام نزوله الأولی،یقول الدکتور محمد حسن هیتو (۲):

«فإننا حین نتکلّم عن إعجاز القرآن لا نرید بذلک إقناع العرب فحسب،و إنما نرید إقناع العالم بأسره،من عربی و غیره،فإن هذا القرآن أنزل للبشر جمیعا و تحدّی به البشر جمیعا فی کل زمان و مکان،و لذلک یجب علینا أن نخاطب البشر بما تستوعبه عقولهم،و أن الجوانب العلمیه الیوم من أهمّ ما یستهوی عقول الناس فی الشرق و الغرب،فإذا ما رأوا ما یدل علی الإعجاز فی کتاب اللّه فی جانب العلوم التی یتقنونها،هان علیهم الإیمان و التسلیم.إذن فالذی دفع العلماء و المفکرین المسلمین للبحث و التحقیق فی جوانب الإعجاز العلمی فی القرآن هو الواقع الذی یعیش فیه۸.

۱- القرآن معجزه و منهج-محمّد متولی شعراوی،ج ۲،ص ۲۷۹.

۲- المعجزه القرآنیه-د.محمّد حسن هیتو،ص ۱۴۸.

الناس،و الذی صارت فیه العلوم أساس الحیاه و الحضاره الإنسانیه».

إن همّ البشریه الیوم هو همّ علمی،فقد انکشف الغطاء للعقل الإنسانی فی هذا العصر ما لم یتکشف له منه فی أیّ عصر مضی من تاریخ الإنسانیه،و إحساس الإنسان بموقعه المتمیز فی الکون و الحیاه جاءه الیوم من خلال الاکتشافات العلمیه،و توظیف النظریه العلمیه فی الصناعات و التکنولوجیا،التی استطاع من خلالها أن یصل إلی القمر فیمشی علیه متبخترا،کما استطاع أن یسبر أعماق الذره و الکون و المجرات و السدم مستخدما لحسابه السنین الضوئیه،کما استطاع أن یسبر أعماق الذره لیصل إلی أخطر قانون علمی اکتشف حتی الآن و هو تحول الطاقه إلی ماده،و الماده إلی طاقه، و فی علوم الحیاه بحث أسرار الخلیه الحیه حتی تعرّف علی اللغه الکیمیائیه فی أعماق الخلیه،و بدأ یدرس الهندسه الحیویه و الوراثیه و یتحکم فی صفات الجنس البشری.

لقد أصبح العالم کماده فی ید العالم المعاصر کالعجینه فی ید الخباز یدوّرها و یمطّها کما یشاء،هکذا العالم الذی تتلاعب به قوانین الکتله و الطاقه و السرعه حتی حطمته و کشفت مجهولاته التی کانت فی السابق تحکمها الأساطیر و الخرافات و المعقولات الساذجه و الفجّه،بل إن الإنسان أخذ یتحدّث عن تاریخ العالم و الکون بدایه و نهایه،و یحسب دوران الفلک و الفضاء و انتهاءه إلی أمده أو عمره الکیمیاوی و الفیزیاوی،و قد غابت المستحیلات العقلیه التی کانت تحجم الفکر عند حدود ضیقه،و هکذا طار الإنسان فی الفضاء یلاحق النجوم و الکواکب و المجرات،و یطلق الأقمار الصناعیه و المرکبات الفضائیه إلی أعماق الکون علّه أن یجد حافّه الکون لیبحث وراءه عمّا یکون هناک،و تعمّق فی الذره تحلیلا حتی بلغ اللامنظور،و تبخّرت تسمیات الماده التی تحوّلت إلی طاقه شعاعیه فحسب،مما قضی علی مفهوم الماده و الجسمیه بالمعانی القدیمه لیدخل بدلها مفهوم الضوء و الطاقه.

إذن،حتی اللغه العلمیه و مصطلحاتها الیوم أصبحت تختلف اختلافا کبیرا جدا، بل و متناقضا مع مفردات اللغه القدیمه و مفاهیمها،فکیف استطاع القرآن،فی هذا العصر الذی کل ما فیه علم فی علم،أن یفرض إعجازه علمیا علی هذا العصر ذی اللغه المختلفه کلیا؟بل و کیف یمکن للقرآن أن یدخل مجال هذه العلوم لیتجاوزها و هو أصلا کتاب هدایه و اعتبار و لیس کتاب علم و اختبار،کما أجمع علیه السلف و الخلف؟یقول عبد اللّه خلاف عن ذلک فی کتابه«علم أصول الفقه» (۱):«القرآن۹.

۱- علم أصول الفقه-عبد اللّه خلاف،ص ۲۹.

أنزله اللّه على رسوله ليكون حجه له و دستورا للناس،ليس من مقاصده الأصليه أن يقرّر نظريات علميّه فى خلق السموات و الأرض و خلق الإنسان و حركات الكواكب و غيرها من الكائنات،و لكنه فى مقام الاستدلال على وجود اللّه و وحدانيته و تذكير الناس بآلائه و نعمه،و نحو هذا فى الأغراض،جاء بآيات نفهم منها سننا كونيه و نواميس طبيعيه كشف العلم الحديث،فى كل عصر،براهينها،و دل على أن الآيات التى لفتت إليها من عند اللّه،لأن الناس ما كان لهم بها من علم و ما وصلوا إلى حقائقها،و إنما كان استدلالهم بظواهرها،فلما كشف البحث العلمى سنّه كونيه، و ظهر أنّ آيه فى القرآن أشارت إلى هذه السنه قام برهان جديد على أن القرآن من عند اللّه،و إلى هذا الوجه من وجوه الإعجاز أرشد اللّه سبحانه بقوله فى سوره فصلت: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقاقٍ بَعِيدٍ(۵۲) سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِى الْآفاقِ وَ فِى أَنْفُسِهِمْ حَتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ [فصلت۵۲/،۵۳]».

و هنا إعجاز آخر لم يطرأ على البال.فإذا كان القرآن هو كتاب هدايه و اعتبار قد أشار فى مضامينه عرضا إلى سنن الكون،فجاءت كل اكتشافات العالم المعاصر تؤيدها و تدعمها،فكيف لو اتجه حقا لأن يكون كتاب علم و اختبار؟لا شك أنه سيكون أكبر من أن يسعه العقل البشرى،و لأعطى اليقين و الحقيقه فى كل شىء مباشره دونما حاجه إلى توسطات التجارب و وسائل الاحتمالات و الإحصاءات،و سيكون هو مقياس الحقائق ذاتها لأنه أعرف بها منها بنفسها،لما ذا؟لأن قائل القرآن هو خالق الأكوان مجال العلم و المعرفه.يقول شعراوى (۱):«إن القرآن كلام اللّه،و الكون خلق اللّه، و حقائق الكون الموجوده فيه و التى خلقها اللّه لا بد أن تنسجم مع كلام اللّه فلا يكون هناك تضارب،فإن حصل ما ظاهره التضارب فإما إنك فهمت حقيقه قرآنيه و هى ليست حقيقه قرآنيه،و ليس هذا المراد من الحقيقه القرآنيه،و إما أنك أتيت بشىء ليس حقيقه علميه و قلت هو حقيقه علميه،و لكن إذا تأكدنا أن هذه حقيقه قرآنيه-و هذا هو الفرق- و هذه حقيقه علميه،فلا بد أن يلتقيا لأن قائل القرآن هو خالق الكون».

بل إن بعض المفسرين و الباحثين يوحّدون فى المعنى بين الكون المنظور، و هو الوجود،و الكون المقروء،و هو القرآن،و يعتبرون أن الكون المنظور هو أدق تفسير للكون المقروء و ليس العكس،يقول د.محسن عبد الحميد،متحدثا عن۴.

۱- هذا هو الإسلام-محمّد متولى شعراوى،ص ۲۰۴.

مدرسه الأفغانی و محمد عبده و رشید رضا فی التفسیر العلمی،أنه یجب (۱)«الانطلاق من المبدأ القائل کلما ازددنا معرفه بما فی الوجود من الأسرار و القوانین ازددنا علما بما فی کتاب اللّه،ذلک لأن الکون المنظور أعظم و أدق تفسیر للکون المقروء،فلا بد إذن من الاستفاده من العلوم المتنوّعه،و الثقافات الإنسانیه المتعدده الحدیثه فی تفسیر القرآن الکریم فی داخل الضوابط الأصولیه المعروفه بین علماء الإسلام التی تضبط الاتجاه لحرکه تفسیر القرآن فی کل عصر».

و لکن أ لیس فی البحث عن الحقائق العلمیه فی القرآن،أو تفسیر القرآن تفسیرا علمیا معاصرا ما یقود إلی ربط العقیده بمفاهیم العلوم و حقائقها،التی قد تتغیر مع الزمن و مع الاکتشافات الجدیده،مما یجعل القول فی القرآن خاطئا علمیا علی التفسیر القدیم مما یضطرّنا لأن نغیر التفسیر مع کل حقیقه جدیده للعلوم؟و بذلک نکون کمن قال فی القرآن برأیه،و هو أخطر التفاسیر و أسوؤها؟لا شک أن هذه المقوله حقیقیه عبّر بها بعض الکتاب و المؤلفین،کالعقاد و بنت الشاطئ و أمین الخولی،عن ملاحظاتهم علی محاولات التفسیر القسریه التی تمت فی بعض الأقطار العربیه،و بعد أن یؤکد العقاد فی کتابه عن الفلسفه القرآنیه من أن العلوم الإنسانیه (۲)«تتجدد مع الزمن علی سنّه التقدّم فلا تزال بین نقص یتم و غامض یتّضح و موزّع یتجمّع،و خطأ یقترب من الصواب،و تخمین یترقّی إلی یقین،و لا یندر فی القواعد العلیمیه أن تتقوّض بعد رسوخ أو تتزعزع بعد ثبوت،و یستأنف الباحثون تجاربهم فیها بعد أن حسبوها من الحقائق المفروغ منها عدّه قرون،فلا یطلب من العقیده أن تطابق مسائل العلم کلما ظهرت مسأله منها لجیل من أجیال البشر،و لا یطلب من معتقدیها أن یستخرجوا من کتبهم تفصیلات تلک العلوم...الخ»،لذا یستنتج العقاد من ذلک (۳)«کلا لا حاجه بالقرآن لمثل هذا الادعاء لأنه کتاب عقیده یخاطب الضمیر،و خیر ما یطلب من کتاب العقیده فی مجال العلم أن یحث علی التفکیر،و لا یتضمن حکما من الأحکام یشل حرکه العقل فی تفکیره أو یحول بینه و بین الاستزاده من العلوم ما استطاع و حیثما استطاع».

و لکن ألا یقود هذا إلی تعجیز القرآن أمام العلم،أو علی الأقل إثبات اختلافه معه و هو من أخطر قضایا الاختلاف بین الدین و العلم،یعود العقاد قائلا (۴):«فالقرآن ۰.

۱- تطور تفسیر القرآن-د.محسن عبد الحمید،ص ۲۲۱.

۲- الفلسفه القرآنیه-عباس محمود العقاد،ص ۱۸.

۳- المصدر السابق،ص ۱۹.

۴- المصدر السابق،ص ۲۰.

الكريم يطابق العلوم،أو يوافق العلوم الطبيعيه بهذا المعنى الذى تستقيم به العقيده و لا تتعرّض للنقائض و الأظانين كلما تبدلت القواعد العلميّه،أو تتابعت الكشوف بجديد ينقض القديم أو يقين يبطل التخمين،و فضيله الإسلام الكبرى أنه يفتح للمسلمين أبواب المعرفه و يحثهم على ولوجها و التقدم فيها،و قبول كل مستحدث من العلوم على تقدم الزمن،و تجدد أدوات الكشف و وسائل التعليم،و ليست فضيلته الكبرى أن يقعدهم عن الطلب و ينهاهم عن التوسع فى البحث و النظر لأنهم يعتقدون أنهم حاصلون على جميع العلوم».لا شك أن تخوّف العقاد،و من معه،من التفسير العلمى كان بسبب التفسيرات العلميه التى ظهرت فى زمنهم،و التى كانت فعلا منحرفه جدا و غير مستنده على أساس علمى منهجى،حتى أن الشيخ طنطاوى جوهرى كان يؤمن بأن القرآن لا يفسّر إلا بالعلم الحديث،فكتب تفسيره و مزج فيه الآيات القرآنيه بالعجائب الكونيه،و يؤكد أن القرآن سر العلوم.

لقد لخص الدكتور عفت محمد الشرقاوى،فى كتابه«الفكر الدينى فى مواجهه العصر»،حجج الذين يعارضون التفسير العلمى بالنقاط التاليه (۱):

۱)إن الفهم الدقيق للألفاظ يحتم علينا فهمها فى حدود الاستعمال الذى نزلت فيه،و هذا يحول بيننا و بين التوسع فى جعلها تدل على معان لم تعرف بها وقت نزول القرآن.

۲)يجب أن نقف بعبارات القرآن عند ما فهمه العرب الخلّص،و لا نتجاوز ما ألفوه فى علومهم و أدركوه من معارفهم،لأننا نعتقد أن البلاغه هى مراعاه مقتضى الحال.

۳)إن مهمه القرآن دينيه اعتقاديه و ليست علميه.

۴)ينبغى أن لا نقحم النظريات العلميه على القرآن الكريم،أو نعتبر أن القرآن الكريم مطالب بموافقتها كلما تغيرت من زمن إلى زمن،و من تفكير إلى تفكير.

۵)إن إدخال التفسيرات العلميّه على الإشارات القرآنيه،و بالصوره التى جرى عليها بعض الكتاب و العلماء،لا بد أن يفضى،عما قريب أو بعيد،إلى الصراع بين الدين و العلم.

۶)التفسير العلمى يحمل أصحابه على تأويل القرآن تأويلا متكلفا يتنافى مع الإعجاز و لا يسيغه الذوق السليم.۵.

۱- الفكر الدينى فى مواجهه العصر-د.عفت محمّد شرقاوى،ص ۴۲۵.

۷)التفسیر العلمی بدعه حمقاء و دفاع فاسد عن إعجاز القرآن من کل وجه.

لا ـ شک أن هذه الملاحظات و الحجج قد أثّرت علی مسیره التفسیر العلمی للقرآن،فبعد أن ذهب الانبهار الأول فی العلوم عبثا،کانت تؤخذ بلا مناقشه و لا دراسه بحیث أن تکون نظریه علمیه افتراضیه،و أن تکون قاعده أو قانونا علمیا حقیقیا،أصبح الیوم للتفسیر العلمی،بل و الإعجاز العلمی،مدرسه متشعبه متعمّقه منهجیه وضعت لنفسها الضوابط و الشروط لهذا التفسیر قبل ممارسته،بل و إنها رجعت إلی بعض الآراء الوارده عن القدامی من علماء و فقهاء لکی تبنی رأیها علی أرضیه ثابته من القناعه،و لکی تبقی للقرآن دوره الإعجازی المستمر حتی فی هذا العصر،فما دام هو صالحا لکل زمان و مکان فیجب إذا أن یقول کلمته فی کل جدید من العلوم و المعارف الحقیقیه،لکی یستدل من ذلک علی أنّه کلام اللّه،و أنه معجزه رسول اللّه،و إلی جمیع العالمین فی کل وقت و حین.

ص: ۲۲

البعد التاريخى

الإعجاز العلمى من كتب الإعجاز

حتى التفسير العصرى

لو حاولنا أن نرجع فى التاريخ إلى الوراء إلى زمن النبوّه و ما بعدها،للتعرف على كيفيه تصور القرآن عندهم لوجدنا ما يعيننا على التأصيل الفكرى للإعجاز العلمى للقرآن،و أنه كانت هناك بدايات لتفسير القرآن علميّا و ضمن مفردات كل عصر،و ما وصل إليه من تطور هذه العلوم آنذاك،ففى الحديث النبوى عن على بن أبى طالب،كرم اللّه وجهه،ورد هذا الحديث (١)قال: (أما إنى قد سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول:ألا إنها ستكون فتنه،فقلت:ما المخرج منها يا رسول اللّه؟قال:كتاب اللّه،فيه نبأ ما قبلكم و خبر ما بعدكم و حكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل،من تركه من جبار قصمه اللّه،و من ابتغى الهدى فى غيره أضلّه اللّه، و هو حبل اللّه المتين،و هو الذكر الحكيم،و هو الصراط المستقيم،هو الذى لا تزيغ به الأهواء،و لا تلتبس به الألسنه،و لا يشبع منه العلماء،و لا يخلق على كثره الرّدّ،و لا تنقضى عجائبه،هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إِنّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ [الجن ٢،١]من قال به صدق،و من عمل به أجر،و من حكم به عدل،و من دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم...)...لعل هذا أقدم أثر لحديث النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن القرآن، فهو لا يشبع منه العلماء و لا تنقضى عجائبه...و يروى أيضا عن على بن أبى طالب فى وصفه للقرآن أنه قال (٢):«القرآن ظاهره أنيق و باطنه عميق،لا تفنى عجائبه و لا تنقضى غرائبه و لا تكشف الظلمات إلا به،و هو آمر زاجر و صامت ناطق و حجّه اللّه على خلقه،أنزله اللّه نورا لا تطفأ مصابيحه،و سراجا لا يخبو توقّده،و بحرا لا يدرك قعره، جعله اللّه ريّا للعلماء و ربيعا لقلوب الفقهاء و محاجّ لطرق الصلحاء و دواء ليس بعده داء،و هو كتاب اللّه بين أظهركم،ناطق لا يعيا لسانه،و بيت لا تهدم أركانه و عزّ لا تهدم أعوانه».

١- التاج الجامع للأصول-منصور على ناصف،ج ۴ ص ٧.

٢- تفسير مفردات القرآن-سميح عاطف الزين،ص ٧.

و لقد كان هذا التصوّر سائدا عند الصحابه و التابعين،لذا فإن الإمام الغزالی ينقل فی إحياء علوم الدين عن بعض العلماء (۱)«أن القرآن يحوی سبعه و سبعين ألف علم،و مائتی علم،إذ كل كلمه علم»،ثم يروی عن ابن مسعود رضی اللّه عنه أنه قال:

«من أراد علم الأولين و الآخرين فليتدبّر القرآن»،ثم يقول بعد ذلک:«و بالجمله، فالعلوم كلها داخله فی أفعال اللّه عزّ و جل و صفاته،و فی القرآن شرح ذاته و أفعاله و صفاته،و هذه العلوم لا نهايه لها،و فی القرآن إشاره إلی مجامعها.ثم يزيد فی ذلک فيقول:بل كل ما أشكل فهمه علی النظّار و اختلفت فيه الخلائق فی النظريات و المعقولات فی القرآن إليه رمز و دلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها،فتفكر فی القرآن و التمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الأولين و الآخرين».

أما السيوطی (۲)فيعتبر احتواءه علی علوم و معارف لم يجمعها كتاب من الكتب، و لا أحاط بعلمها أحد فی كلمات قليله،و أحرف معدوده،أول وجه من وجوه إعجاز القرآن،و يروی أحاديث و آثار كثيره فی هذا الصدد،منها ما رواه البيهقی عن الحسن قال:أنزل اللّه مائه كتاب و أربعه كتب أودع علومها أربعه منها التوراه و الإنجيل و الزبور و الفرقان،ثم أودع علوم الثلاثه فی الفرقان.و يروی عن ابن مجاهد أنه قال:

ما شیء فی العالم إلا و هو فی كتاب اللّه عز و جل.و يروی عن ابن أبی الفضل المرسی قوله:جمع القرآن علوم الأولين و الآخرين بحيث لم يحط بها علما إلا واهبها و المتكلم بها،ثم رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم خلا ما استأثر به سبحانه،ثم ورث عنه معظم ذلک سادات الصحابه و أعلامهم،مثل الخلفاء الأربعه و ابن مسعود و ابن عباس، حتی قال لو ضاع لی عقال بعير لوجدته فی كتاب اللّه.ثم يستعرض السيوطی جميع العلوم النابعه من القرآن،فيجمع كل العلوم الموجوده فی عصره و يصل إلی القول (۳):«و قد احتوی علی علوم أخر من علوم الأوائل،مثل الطب و الجدل و الهيئه و الهندسه و الجبر و المقابله و النجامه و غير ذلک»،و ينقل عن الراغب قوله«إن اللّه تعالی كما جعل نبوءه النبيين بنبينا و مولانا محمد صلّی اللّه عليه و سلّم مختتمه،و شرائعهم بشرعته من وجه منتسخه و من وجه متمّمه مكمله جعل كتابه المنزل عليه متضمنا لثمره كتبه التی أولها (۴)أُولئِکَ عَلی هُدیً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [البقره۵/]و قوله۹.

۱- أصول التفسير و قواعده-خالد عبد الرحمن العک،ص ۲۲۰.

۲- معترک الأقران فی إعجاز القرآن-السيوطی-ج ۱ ص ۱۲.

۳- المصدر السابق،ص ۱۷.

۴- المصدر السابق،ص ۱۹.

يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً* فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ [البينه۲،۳/۳]،و جعل من معجزه هذا الكتاب أنه مع قله الحجم متضمن للمعنى الجم بحيث تقصر الألباب البشريه عن إحصائه و الآلات الدنيويه عن استيفائه،كما نبّه عليه بقوله وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَهُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللّهِ [لقمان۲۷/]».و أخيرا يروى السيوطى قول القاضى أبى بكر بن العربى فى قانون التأويل:علوم القرآن خمسون علما،و أربعمائه علم،و سبعه آلاف علم،و سبعون ألف علم،على عدد كلم القرآن مضروبه فى أربعه،إذ لكل كلمه ظهر و بطن و حد و مطلع،و هذا مطلق دون اعتبار تركيب و ما بينهما من روابط،و هذا مما لا يحصى و لا يعلمه إلا اللّه.و يروى السيوطى حديثا عن أبى هريره أنه قال:قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:(إن اللّه لو أغفل شيئا لأغفل الذره و الخردله و البعوضه).

و ممن تابع مفردات التفسير العلمى الدكتور محسن عبد الحميد،حيث يرجع بداياته إلى الإمام الغزالى (۱)فى كتاب جواهر القرآن،الذى دعا فيه إلى أن هذه العلوم المعروفه ليست أوائلها(أصولها)بخارجه عن القرآن،لأن جميعها مغترفه من بحار معرفه اللّه تعالى.فالعلماء بهذه العلوم هم الذين يعرفون الأسرار و السنن الكامنه وراء الآيات الكونيه فى القرآن الكريم،و التى تمثل بحار أفعال اللّه تعالى فى الوجود.و يرى الدكتور عبد الحميد أن الغزالى لا يعتقد بوجود هذه العلوم جميعها بتفاصيلها فى القرآن،و إنما كان يعتقد أن موازينها و مفاتيحها هى الموجوده فيه، و لعل أكثر من تعامل بمفردات العلوم من تفاسير القرآن هو الفخر الرازى فى تفسيره الكبير الذى آمن بمقوله الغزالى و أكثر من استخدامها فى تفسيره.

إلا أن الدكتور عبد الحميد،فى دراسته عن تفسير الرازى،يقول عنه (۲)«إنه لم يذكر أن فى القرآن كل العلوم و المعارف الإنسانيه بالفعل،بل إنه مشى على أساس أن القرآن يجلب نظرنا إلى القوانين المتنوعه المنشوره فى الكون،و لن نستطيع أن نفهمه حق الفهم إن لم نطّلع على العلوم و المعارف،إذ أن فى ضوئها نفهم كثيرا من أسرار القرآن»...إذن فالقدامى من العلماء و الباحثين،و من الصحابه و التابعين كانوا يعتقدون أن كل العلوم فى القرآن،سواء عرفوا هذه العلوم التى كانت فى عصرهم أو لم يعرفوها،و أن فيه علم الأولين و الآخرين،و لمعرفتنا بحدود علومهم فى ذلك الزمان و اختلاط بعضها ببعض فإننا لا نستغرب منهم ذلك،فأين كتاب اللّه من كتبه.

۱- تطور تفسير القرآن-د.محسن عبد الحميد،ص ۲۲۵.

۲- المصدر السابق نفسه.

البشر؟و أين علم اللّه من علم البشر؟فالأساس الذى اعتمدوه فى أحاديثهم عن القرآن،و ما استخرجوه و استنبطوه منه يعود إلى هذا اليقين و الإيمان بصدقه قبل البرهنه عليه،و ذلك لأنه من اللّه و من علم اللّه و من كلام اللّه،فخالق الكون و الخلق أدرى بما خلق أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [الملك۱۴/]و لعل خير ما يستشهدون به على جميع ما يذكروه من علوم القرآن أنه هو نفسه قال: وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ [لقمان۲۷/].فمن يؤمن بالقرآن يؤمن بهذه الآيه،و من يؤمن بهذه الآيه فليبالغ ما شاء،فلن يصل إلى حدود علم اللّه،لأن علم اللّه مطلق و جميع المبالغات المفهومه و غير المفهومه هى نسبيه لعقل الإنسان المحدود،و لا شك أن المعترضين و المحتجين على تفسير القرآن علميا هم ناس مؤمنون أيضا و لا يختلفون عن أن علم اللّه هو فوق البشر،و أن كلام اللّه المعبر عن علمه فى القرآن هو أبعد من أن يحيط به عقل،إلا أن الاختلاف بينهم و بين المؤيدين للتفسير العلمى يكمن حول المناسبه و الالتقاء الحقيقى بين كل آيه و كل علم،فهل هذه الآيه قصد منها كذا،و تدل على كذا حقيقه علميه،أم أنها لا تدل على ذلك!و هل القرآن فيه ما يشير إلى أبواب و مبادئ العلوم فى كذا آيه،أم أن هذه الآيه تفسيرها أسباب النزول و المعانى المحدده و المشخصه فيها،كما فسّرها الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم أو بعض الصحابه و التابعين؟هنا مكمن الخلاف،و هذه مسأله قادت إلى سؤال كبير طرحه العقاد على نفسه فيقول (۱)«هل معنى ذلك أن الكتب المقدسه لا تفهم إلا كما فهمها المخاطبون بها لأول مره؟ أو معناه أنها تفهم فى كل عصر حسب النظريات العلميه التى انتهى إليها أبناؤه؟ و رغم أن العقاد من المعارضين للتفسير العلمى للقرآن إلا أنه حينما يجابه هذا السؤال يقول بأنه لا محل للخلاف فى أن الإنسان العصرى مطالب بفهم كتبه المقدسه،و فهم ما توجبه على ضميره من الفرائض و الشعائر و الواجبات،و الفهم المطلوب من المكلف المخاطب يقتضى أن المسلم مأمور فى القرآن بالتفكير و التأمل و التدبّر و الاستقلال بذلك عن الآباء و الأجداد،و أخبار الزمن القديم و أئمه الدين،و ليس الخطاب مقصورا على العرب الأميين،و لا هو مقصور على أبناء القرن العشرين،و لكنه عام مطلق لكل عصر و كل زمان،إذ ليس من المعقول أن يفكر الإنسان على نسق واحد فى جميع العصور.و مع هذا فالعقاد يؤكد أن التفكير۷.

۱- الفكر الدينى فى مواجهه العصر-د.عفت محمّد شرقاوى،ص ۴۲۷.

العصری شیء و إقرار النظریات العلمیه المتجدده شیء آخر».

و نفس السؤال یطرحه الأستاذ محمد الصادق عرجون فی کتابه«نحو منهج لتفسیر القرآن»،مع العلم أنه یعارض معارضه شدیده لما وقع من تفسیرات علمیه للقرآن، یقول (۱):«إذا کان أسلافنا من أعلام العلماء و حکماء الإسلام قد خاضوا بحار العلوم و لجج المعارف،و اقتحموا حصون الأفکار فی أزمانهم،و لم یترکوا منها مشرعا إلا و ردوه،و اتخذوا من کافه معارفهم و أفکارهم معینا لفهم کتاب اللّه فهما یقوم علی حقائق العلم الصحیح لتبین هدایته و إقامه محبته،فما موقفنا نحن من عصرنا و معارفه و وسائله و أفکاره و مذاهبه؟هل نقف من آیات اللّه عند مبلغ ما وصل إلیه أسلافنا فی أعصرهم،و هو نهایه احترام العقول فی بیئاتهم و أزمانهم و مجتمعهم؟أو نتقدم فی شجاعه کما تقدموا إلی البحث بوسائل عصرنا،و نغوص فی بحار معارفه بعقولنا التی ربّاها القرآن الحکیم و حدیثه و براعه أسلوبه و لطف مدخله و دقه تصویره،و رائع تناوله لقضایا الحیاه و الکون مع عنایته بتثبیت قواعد الإیمان فی قلوب دارسیه من المؤمنین».

و رغم معارضته للتفسیرات العلمیه التی وقعت للقرآن،نراه یجیب بضروره ذلک و لکن بشروط هی أن لا نخضع القرآن لنظریات علمیه لا تزال فی مهبّ التجارب، و قد تعصف بها فتصبح من قبل الأساطیر،کما فعل بعض المتحمسین و بعض المخدوعین ببریق العلم التجریبی،و أن نحذر أشد الحذر من الشطحات القرمطیه التی تقصد إلی تحریف آیات اللّه عن مواضعها،و یخلص إلی القول (۲)«و النظر فی تفسیر الآیات الکونیه یجب أن یقصد أولا- إلی تبیین هدایه القرآن تبیینا علمیا،لا علی أساس أن نجعل النظریات العلمیه التجریبیه هی تفسیر الآیات القرآنیه و معانیها التی قصدها القرآن الکریم،و لکن علی أساس أن القرآن الکریم لا یصادم علما ثبت بالبرهان القطعی ثبوتا لا یحتمل الارتیاب و الشکوک،و الراسخون فی العلم من المؤمنین تزیدهم النظریات العلمیه فی حقائق الکون و خواطر الطبیعه إیمانا بجلال اللّه و عظمه الخلاق العلیم»...

إن جمیع المعارضین لتفسیر القرآن علمیا،تنصب ملاحظاتهم علی ممارسات بعض المفسرین و انحرافاتهم فیها،و لم أجد من یعترض مبدئیا أو فکریا أو یعطی قانونا عاما یبرّر به سبب رفضه للاستفاده من العلوم و المعارف الحدیثه فی تفسیر القرآن.فالدکتوره عائشه عبد الرحمن،حینما تتحدث عن سلبیات التفسیر العلمی،۳.

۱- نحو منهج لتفسیر القرآن-محمّد الصادق عرجون،ص ۶۱.

۲- المصدر السابق،ص ۶۳.

تضع أمامها تفسيرات مصطفى محمود المبتسره و التى لا تصمد كثيرا أمام النقد، حتى كتب أكثر من واحد كتابا كاملا فى الرد عليه،منهم الدكتور عبد المتعال الجبرى فى كتاب«شطحات مصطفى محمود فى تفسيراته العصريه للقرآن الكريم»، أما كتاب الدكتوره عائشه«القرآن و التفسير العصرى»فهى تؤكد فيه أننا نتورط،من هذا المنهج فى التفسير،إلى المزلق الخطر يتسلل إلى عقول أبناء هذا الزمان و ضمائرهم،فيرسخ فيها أن القرآن إذا لم يقدم لهم علوم الطب و التشريح و الرياضيات و الفلك و أسرار البيولوجيا و الإلكترون و الذره ليس صالحا لزماننا،و لا جديرا بأن تسيغه عقليتنا العلميه و يقبله منطقنا العصرى.و هكذا تصل إلى القول بأن مثل هؤلاء الذين يلحون على التفسير العصرى للقرآن يغرون أبناءنا بأن يرفضوا القرآن كما فهمه الصحابه فى عصر البعث و مدرسه النبوه،ليفهموه فى تفسير عصر من بدع هذا الزمان.

أما الدكتور عبد المتعال فإنه يفترض على المفسر،قبل أن يدخل فى مجال التفسير،ضوابط عده منها دراسه العلوم الكونيه و الاجتماعيه،لأنها كما يقول تزيدنا يقينا بنسب القرآن إلى عالم الغيب و الشهاده الحكيم العليم،و يعتقد أن حقائق العلوم المنوعه التى سبق القرآن بتبيانها و لم تكن موجوده عند نزول القرآن،تزيدنا يقينا بأن القرآن من عند اللّه،إذ هى تؤكد لنا علم اللّه بالغيبيات و هيمنته على المخلوقات أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [الملك۱۴/] إِنّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ [القمر۴۹/] و هى برأيه ظلال من المعرفه تساعدنا على تصور عظمه اللّه فى كتابه المسطور،و أنه على النحو الذى تجد عظمته فى كتابه المنشور كتاب الوجود،فنقف أمامه سبحانه خاشعين مسلمين مؤمنين قانتين.

و يستنتج الدكتور من ذلك ضابطا أو شرطا للتعامل معها من خلال قوله (۱)«و أبحاثنا العلميه-معشر البشر-ينعكس عليها قصور مداركنا و قدراتنا،و من ثم فهى أقل من أن نفهم فى ضوئها كتاب اللّه،و إنما الصواب و المنطقى أن نفهمها فى ضوء كتاب اللّه،فإن الكامل هو الذى يحكم على الناقص»،إلا أن الكاتب،و رغم كون كتابه محصورا بشطحات مصطفى محمود فى تفسيراته العصريه،يطرح حكما قاسيا حينما يؤكد على (۲)«إن الإلحاح على صوغ المفاهيم الإسلاميه و نصوص الشريعه۲.

۱- شطحات مصطفى محمود فى تفسيراته العصريه للقرآن الكريم-د.عبد المتعال الجبرى،ص ۲۳.

۲- المصدر السابق،ص ۱۲.

فی قوالب النظریات العلمیه المعاصره،له خطره علی الإسلام ذاته فی المدی البعید لحرکه الحرب ضد الإسلام»،و یضرب مثلا علی ذلک العلاقه التی قامت بین المسیحیه و العلم حینما حاولت أن تدخل شروح الإنجیل کدراسات فی الطبیعه و الفلک و الریاضه و الطب و شتی العلوم،و درست هذه بقوانینها علی أنها وحی مقدس،فلما سقطت هذه العلوم بالتطور سقطت المسیحیه معها،و کذلک الحال مع الدیانه الزرادشتیه عند ما وضع علماء الدین و مدارسهم،التی کانت تهیمن علی الثقافه،ما لیس من الدین من علوم الفلک و الطبیعه و غیرها،فلما جاءت الفلسفات الیونانیه و السوریانیه سقطت الدیانه الزرادشتیه مع علومها،و کذلک بعض الأدیان الأخری.ثم یطرح الکاتب سؤالا خطرا أکثر (۱)«هل تشجیع المستعمر لهذا النمط من التفاسیر أولا...ثم انسیاق المخلصین فی هذا التیار دون سوء قصد ثانیا،یسلمنا إلی المأساه التی تحطمت المسیحیه علی صخرتها؟إنها محاولات-لا شک-خیر منها عدمها و أولی ألا تسمی تفسیرا للقرآن،و مع ذلک فلن تنال من الإسلام شیئا إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنّا لَهُ لَحافِظُونَ [الحجر۹/]»،و کم سبقت فی کیده محاولات فباءت بالفشل:

کناطح صخره یوما لیوهنها*لم یضرها و أوهی قرنه الوعل إذن،فالمسأله أخطر من أن نمرّ علیها مرور الکرام،حیث دخل الاستعمار فیها بشکل غیر مباشر،و لو عدنا قلیلا إلی قصه تفسیر القرآن عبر التاریخ،و ما دخل علیها من انحرافات سنجد أن هذا الانحراف فی التفسیر العلمی-إذا صح الادعاء به-یکون لیس جدیدا علی محاولات تفسیر القرآن بأشکال و أسالیب مختلفه،فما ذکره الشیخ خالد عبد الرحمن العک فی کتابه«أصول التفسیر و قواعده»عن الاتجاهات المنحرفه فی التفسیر عبر التاریخ قوله (۲)«إن مما لا شک فیه أن إخضاع تفسیر القرآن الکریم لمیول شخصیه،و مذاهب ذات مفاهیم مغالیه،فتح علی المسلمین باب شرّ خطیر،و لج منه أعداء الإسلام للدّس فیه و تشویه صورته و إفساد عقائده،کما أنه دلف منه أصحاب البدع إلی ترویج بدعهم متسترین بآیات اللّه تعالی، کما منی التفسیر بأصحاب المیول المختلفه و النزعات المنحرفه حین وضعوا أقوالا فی التفسیر نسبوها إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم أو إلی بعض أصحابه زورا و بهتانا...».۸.

۱- شطحات مصطفی محمود فی تفسیراته العلمیه للقرآن الکریم-د.عبد المتعال الجبری،ص ۱۳.

۲- أصول التفسیر و قواعده-خالد عبد الرحمن العک،ص ۲۲۷-۲۲۸.

إذن،فالانحرافات التی دخلت علی تفسیرات القرآن کثیره و متنوعه،و لکن کل هذا ما کان لیضر القرآن شیئا،فأخطاء التفسیر لا تقدح فی القرآن،و إنما بالمفسرین أنفسهم،فهم الذین أخطئوا،قصدا أو بلا قصد.و یرجع الشیخ خالد العک عوامل هذا الانحراف إلی ثلاثه عوامل:أولها:فساد نوایا المفسرین لتحقیق غایات نکره أو مشبوهه،و ثانیها:أن یعتقد المفسر معنی من المعانی ثم یرید أن یحمل ألفاظ القرآن الکریم علی ذلک المعنی الذی یمیل إلیه و یعتقده،و ثالثها:أن یفسر القرآن بمجرد ما یسوغ أن یریده بکلامه ممن کان من الناطقین بلغه العرب،و ذلک بدون نظر إلی غایه المتکلم بالقرآن و هو اللّه تعالی،و إلی المنزّل علیه،و هو رسول اللّه،و المخاطب به و هم الناس جمیعا.و یظهر انحراف التفسیر فی العامل الأول بسوء النیه،و الثانی فی حمل الألفاظ القرآنیه علی المعنی الذی یمیل إلیه،و یعتقده من غیر نظر إلی ما تحمله الألفاظ من المعانی الواضحه و من الدلاله و البیان،و العامل الثالث إثبات المعنی الذی یراه المفسر،من غیر نظر إلی ما یصلح للمتکلم بالقرآن،و هو اللّه تعالی و المخاطب به و سیاق الکلام.

إن صور الخطأ فی العامل الثانی یظهر من خلال کون المعنی الذی یریده المفسر صوابا،غیر أن لفظ القرآن لا یدل علیه و لا یراد منه،کتفاسیر بعض الصوفیه و الوعاظ الذین یفسرون القرآن بمعان صحیحه فی ذاتها لکنها غیر مراده فی النص و إن کان المعنی الظاهر لا ینافیها،و قد تظهر صوره الخطأ بأن یکون المعنی الذی یریده المفسر صحیحا لکن ظاهر النص لا یحتمله،کتفاسیر بعض الصوفیه الذین یفسرون القرآن بمعان إشاریه صحیحه فی حد ذاتها،و لکنهم یقولون إن المعانی الظاهریه للآیه غیر مراده،و هو أقرب ما یکون إلی تفسیر الباطنیه،و قد تظهر صور الانحراف بأن یکون المعنی الذی یریده المفسر خطأ،و هو مع هذا یحمل علیه لفظ القرآن مع أنه لا یدل علیه و لا یراد منه.و قد تظهر هذه الصور بأن یکون المعنی الذی یرید المفسر نفیه أو إثباته خطأ بیّنا،و هو مع هذا یسلب لفظ القرآن ما یدل علیه و یراد به و یحمله علی ذلک الخطأ تعمدا،و هذه الصوره تنطبق علی أهل البدع و المذاهب الباطله من الغلاه و المتعصبین.

أما صور الانحراف،التی تظهر فی العامل الثالث،فتظهر من خلال أن یکون اللفظ محتملا للمعنی الذی ذکره المفسّر لغه،و لکنه غیر مراد،و ذلک کاللفظ الذی یطلق فی اللغه علی معنیین أو أکثر و المراد منهما واحد بعینه حسب السیاق،فیأتی المفسّر فیحمله علی معنی آخر من معانیه غیر المعنی المراد.أو قد یظهر بأن یکون

اللفظ موضوعا لمعنى بعينه و لكنه غير مراد فى الآيه،و إنما المراد معنى آخر غير ما وضع له اللفظ بقرينه السياق مثلا،فيخطئ المفسّر فى تعيين المراد لأنه اكتفى بظاهر اللغه فيفسر اللفظ على معناه الوضعى.

إذن،هذه هى الاحتمالات و الانحرافات التى كشف عنها تاريخ تفسير القرآن فى الماضى،و يمكن من خلالها معرفه كثير من الأخطاء التى وقع بها المفسرون فى السابق لعدم تقيدهم بشروط التفسير الموضوعه له،و لأن السبب الأساسى الذى كان يحرّكهم هو البدع الباطله التى دعتهم إلى تحريف الكلم عن مواضعه،و فسروا كلام اللّه تعالى و سنه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم بغير ما أريد به،و تأولوه على غير تأويله.

فأصحاب المنهج الفلسفى الكلامى خاضوا فى تفسير الآيات المتشابهات و تأويل الصفات على مقتضى العقل فقط،و أرادوا من الآيات أن تكون أدله شاهده على أفكارهم،فأخذوا فى تأويلها بشتى الوجوه حتى يطابقوها على ما يريدون،و إذا ما وجدوا آيات تقف ضد أفكارهم أخذوا فى تأويلها لتطابق أصولهم.و أما أصحاب المنهج الصوفى فقد استخدموا المنهج الإشارى الرمزى لآيات القرآن،لاعتقادهم أن كل آيه فى القرآن تخفى وراءها معنى باطنا مقصودا لا يكشفه اللّه إلا للخاصه منهم، و أن المعرفه الحقه اليقينيه لا تدرك إلا بالتأويل الباطنى العميق و المجاهده النفسيه فى حالات الكشف العليا،و أن الوقوف على ظواهر النصوص القرآنيه حجاب يمنع من الوصول إلى معرفه حقائق الأمور،و أن علم الظواهر يدخله الظن و الشك، و الكشف الباطن يرفع الظن و يزيل الشك.و أما أصحاب الغلو و المتعصبين فقد دأبوا على حمل الآيات القرآنيه بشكل متكلّف لتأييد آرائهم و تثبيت أفكارهم،فالخوارج و الجبريه و المعتزله...هم أصحاب هذا المنهج،و من هنا أيضا يمكن وصف تدخل السياسه فى تفسير القرآن حينما أخذ بعض المفسرين يشير إلى طوائف الحروريه و الخوارج،بل و حرب على و معاويه و غيرها على أن لها إشارات داله فى القرآن الكريم،و قد كان للشيعه تفاسير خاصه أيضا فى هذا المجال.

و إذا عرفنا أن كل هذه الانحرافات قد دخلت فى التفاسير عبر التاريخ،رغم ادعاء كل فئه إلى أنها هى الصواب و غيرها الخطأ،حتى عادت حركه التفسير من جديد إلى الوراء لتنقيه تفاسير القرآن من الأغاليط،فاتجه بعض المتأخرين إلى الوقوف عند حدود تفسير الرسول و الصحابه و التابعين له وقوفا حادا،و مع هذا فقد كان للإسرائيليات نصيب كبير فى بعض هذه التفاسير لم يستطع أن يتخلص منها كليا..

لقد كانت الصوره الكئيبه،التى عاشتها الأمه الإسلاميه حتى القرن التاسع عشر،

صوره تعکس وقف النشاط الفکری و العلمی و سیاده الخرافات،و اصطبغت العقلیه الإسلامیه بصیغه القعود و التواکل و انتشار الجهل،و لما کان الدافع الأساسی لحرکه هذه الأمه و انبعاثها هو القرآن الکریم فکان یجب أن یقع اللوم علی المفسّرین،الذین أقعدوا القرآن بتفاسیرهم و خرافاتهم علی أن یقوم بفاعلیته الأساسیه فی بعث الأمه، و أن یبقی منارا قائدا لها فی کل زمن و حین،و لهذا نری أن بدایات حرکه النهضه العربیه انطلقت من إعاده النظر إلی القرآن و إعطائه دوره فی بعث الأمه،و ذلک من خلال فهمه الفهم الصحیح،و تجاوز کل التفسیرات المشوّهه التی طرحت کل شیء فی أقوالها إلا القرآن،و قد تجمد القرآن فی کتبهم فی أحسن أحواله بدراسات لغویه و لفظیه و بلاغیه و نحویه و معان جامده تسودها الإسرائیلیات و الخرافات الباطنیه، حتی غطت بغبارها علی روح القرآن الحقیقیه التی کانت أساس بعث أمه أمیّه قادت العالم فی أنصع و أنضج حضاره فی تاریخ العالم،من هنا کانت دعوه جمال الدین الأفغانی إلی النهضه و الیقظه بإعاده النظر فی تفسیراتنا للقرآن.یقول الدکتور محسن عبد الحمید و هو یبحث المدرسه الحدیثه فی تفسیر القرآن (۱):«هاجم الأفغانی بشده المناهج التفسیریه التی أقحمت علوما و مصطلحات غریبه عقلیه و لغویه و نقلیه فی تفسیر الآیات،فحجبت حقائقه عن الناس،و صنعت من تفسیر آیاته أحاجی معقده لا یستطیع إلا العالم الخبیر أن یقترب منها،و تحوّلت کتب التفسیر إلی میادین تعبیریه بالغه الصعوبه یستعرض فیها العالم قوته کلها لإغلاق العبارات،فحرم المسلم من تذوق القرآن و فهم آیاته و الانفعال بروحه.و دعا الأفغانی إلی فهم القرآن و السنه النبویه الصحیحه و أعمال السلف الصالح،أما ما تراکم علیه و تجمّع حوالیه من آراء الرجال و استنباطاتهم و نظراتهم فینبغی ألا نعوّل علیها و حیا،و إنما نعوّل علیها رأیا، و لا نحملها علی أکفنا مع القرآن فی الدعوه إلیه و إرشاد الأمم إلی تعالیمه...و کان یدعو إلی منهج فی التفسیر یقلع ما رسخ فی عقول العوام و معظم الخواص من فهم بعض العقائد الدینیه و النصوص الشرعیه علی غیر أوجهها،مثل حمل نصوص القضاء و القدر علی معنی یوجب علیهم ألا یتحرّکوا إلی طلب مجد أو تخلص من ذل».

و هکذا نری أن الدکتور محسن عبد الحمید یعتقد أن الأفغانی و محمد عبده، و رشید رضا أعادوا للقرآن صورته الحقیقیه بعد نزع کل الخرافات و التأویلات.

۱- تطور تفسیر القرآن-د.محسن عبد الحمید،ص ۲۱۰.

و التفسيرات اللغويه و اللفظيه،و كل ما حجب حقيقه القرآن و روحه عن المسلمين، و كان تفسيرهم المشترك«المنار»هو خير التفاسير التى قدمت لبدايه التفسيرات الحديثه للقرآن (۱):«إن ما يؤاخذ صاحب المنار المفسرين عليه هو إخضاعهم النصوص القرآنيه الواضحه للمصطلحات العلميه و الفلسفيه و الأصوليه الحادثه،دون أن ينطلقوا من ضوابط صحيحه فى التفسير اتفق عليها المحققون من علماء القرآن و فقهاء الأمه،فى تحديدهم مفاهيم الألفاظ و استنباطهم الأحكام من مدلولات التراكيب،و بناء الأفكار الإسلاميه على اتجاهات متينه متفقه مع تلكم الضوابط».

لقد رد تفسير المنار على المفسرين بالرأى و على الصوفيه و على الباطنيه و أهل البدع،ثم قام بتنقيه التفاسير من الإسرائيليات الكثيره و الأخبار الواهيه التى أفسدت، على كثير من المسلمين،حقائق الدين و قوانين الحياه،فكوّنت عندهم عقليه خرافيه تصدق كل خبر دون تمحيص أو تدقيق مما يصطدم أساسا مع الإسلام الذى دعا إلى التفكير و النظر.على أن الملاحظ على هذا المنهج التفسيرى العقلى،و نتيجه لموقعه بين ضغط الخرافه من جهه و ضغط الفتنه بالعلم من جهه أخرى،مما جعله يميل إلى جعل مألوف السنن الكونيه هى القاعده الكليه لسنه اللّه،فردّوا الكثير من الخوارق إلى مألوف سنه اللّه دون الخارق منها،و إلى تأويل بعضها بحيث يلائم المعقول،و إلى الحذر و الاحتراس الشديد من الغيبيات،و هو ما ذكره سيد قطب فى ملاحظاته عليه.إن هذا المنهج العقلى فى التفسير هو الذى قاد لأن ينص،فيما ينص عليه من ضوابط،على (۲)«المبدأ القائل كلما ازددنا معرفه بما فى الوجود من الأسرار و القوانين ازددنا علما بما فى كتاب اللّه،ذلك لأن الكون المنظور أعظم و أدق تفسيرا للكون المقروء،فلا بد إذن من الاستفاده من العلوم المتنوعه و الثقافات الإنسانيه المتعدده الحديثه فى تفسير القرآن فى داخل الضوابط الأصوليه المعروفه بين علماء الإسلام،التى تضبط الاتجاه لحركه تفسير القرآن فى كل عصر،و قد تكون هذه هى النافذه التى بدأ منها دخول التفسير العلمى إلى القرآن بالمفهوم المعاصر، خاصه و أنه تاريخيا بدأ فيما يبدو بعدها بقليل،و إن كان لم يلتزم فى بداياته بالضوابط الأصوليه الخاصه بالتفسير فانحرف إلى ما انحرف إليه».

لا شك أن التطرف فى التفسير العلمى هو الذى جعله ينحرف عن مساره كتفسير، إضافه إلى عدم تقيده بالضوابط المعمول بها للتفاسير،و قد لخص الشيخ خالد العك۱.

۱- تطور تفسير القرآن-د.محسن عبد الحميد،ص ۲۱۳.

۲- المصدر السابق،ص ۲۲۱.

انحراف تفسير الشيخ طنطاوى جوهرى بالصور التاليه (۱):

۱)يفسّر الآيات القرآنيه تفسيرا لفظيا مختصرا،ثم سرعان ما ينطلق لذكر أبحاث علميه مستفيضه يسميها«لطائف أو جواهر»،و تلك الأبحاث المستفيضه بطبيعه الحال أفكار علماء الشرق و الغرب فى عصره،و هو بهذا جعل تفسيره يخرج عن موضوعه الأساس ألا«و هو إظهار معانى القرآن بالطريقه الشرعيه»حتى قال بعض نقاده«فيه من كل شىء سوى التفسير».

۲)إيداعه فى تفسيره صور النباتات و الحيوانات و المناظر الطبيعيه و تجارب العلوم،و هذا ما لا يعهده المسلمون فى تفسير القرآن العزيز.

۳)اعتماده فى تفسير كثير من الحقائق الدينيه التى جاء بها القرآن نقيه صافيه،على ما جاء عن أفلاطون فى نظريته،و هذا ما لا يجوز شرعا لأن القرآن بحقائقه الثابته الناصعه بغنى عن أوهام الفلسفه الأفلاطونيه.

۴)ركونه إلى تفسيرات الباطنيه الباطله فى رسائل إخوان الصفا،فهو حين ينقلها يبدى رضاه عنها و تصديقه بها مع أنها تخالف الثابت من نصوص الكتاب و السنه.

۵)استخراجه علوما مزعومه بواسطه حساب الجمل الذى لا يوصل إلى حقيقه ثابته،و هذه طريقه أخذت عن اليهود،كما أنه يعتمد أوهام تحضير الأرواح التى يقول بها الخرّاصون.

هذه هى مجمل الأمور التى جعلت تفسيره يخرج عن منهج علمائنا الثقات الأثبات فى تفسير القرآن الكريم.

أما مدّعى التجديد،كما يسميهم خالد العك،فيذكر ثلاثه منهم،هم مصطفى محمود فى«تفسيراته العصريه للقرآن الكريم»،و الشيخ أبو زيد الدمنهورى فى «الهدايه و العرفان فى تفسير القرآن»،و الأستاذ عبد الودود يوسف فى تفسيره«تفسير المؤمنين»،و يذكر أن انحرافات مصطفى محمود نشأت من النقاط التاليه (۲):

۱)تصويره أن القرآن الكريم إذا لم يقدّم للناس علوم الطب و التشريح و الرياضيات و الفلك و أسرار البيولوجيا و الإلكترون و الذره،فليس صالحا لزماننا و لا جديرا بأن تسيغه عقليتنا العلميه و يقبله منطقنا العصرى.

۲)تفلّته من قيود الآداب الإسلاميه فى التعبير فى التفسير،فوقع فى أسر الانفعال و الرغبه فى التعبير المتحرر من الألفاظ الرصينه الهادفه لأسمى۵.

۱- أصول التفسير و قواعده-د.خالد عبد الرحمن العك،ص ۲۵۳.

۲- المصدر السابق،ص ۲۵۵.

المعانی التی تلیق أن یؤتی بها فی تفسیر کلام اللّه تعالی،حیث لم یهذّب عباراته بالتأدب فی حق اللّه تعالی و حق کلامه الکریم،کما لم یهذب ألفاظه مع علماء الإسلام فقدح بهم علی لسان المتصوفه النظریین.

۳)تمثله فی کتابته بصوره المتلهّف الظمآن إلی آفاق روحیه مندفعه اندفاع من أتخمه الشبع المادی حتی أحس بثقل أغلاله،فانطلق وراء سراب للخلاص،غیر عابئ بأی شیء،فوقع فی شطحات الصوفیه النظریه،کما وقع فی تأویلات الباطنیه.

۴)و فی ضجیج العصرنه(الطنانه الرنانه)،یقدم تفسیره العصری فی صوره «العجائب و الغرائب»التی تبهر بصر العامه فلا تعد تری الرؤیه الصحیحه التی تمیز الحق من الباطل،و لا تقدر أن تفصل بین منطق التفکیر العلمی الصحیح و جرأه الادعاء.

هذه هی مجمل الأسباب التی جعلت رجل العصر و العلم ینحرف فی تفسیراته العصریه للقرآن الکریم.

أما الشیخ أبو زید الدمنهوری فقد أحدث ضجّه کبری فی أوساط علماء الأزهر، حیث أنکروا علیه منهجه المنحرف فی تفسیره،و انتهی الأمر بمصادره الکتاب و الحکم علی صاحبه بالزیغ و الضلال.

أما«تفسیر المؤمنین»،لعبد الودود یوسف،فیکفی أن البوطی قال عنه«أعتقد أن جمیع العلماء یتفقون علی أن هذا التفسیر یحوی بین دفّتیه أخطاء کثیره جدا جدا، حتی لو تجاوزنا الأخطاء الشکلیه التی تکون فی العباره بسبب الرکّه أو عدم جلاء المعنی،لأن الکاتب ربما لم یستطع أن یوضح فکرته.لو تجاوزنا هذا....فإن هناک أخطاء أخری فی الصمیم،یعنی فی الأحکام فی تفسیر جوهر الآیات،و هذه الأخطاء،کما و کیفا،مهمه جدا».

من کل ما تقدم،نری أن الأخطاء و الانحرافات،التی وقعت فی بعض التفسیرات العلمیه و المعاصره،لم تقم علی أساس مبدئی أو تأصیلی،و إنما قامت و وقعت بسبب عدم التزام الضوابط العامه لأی تفسیر،و کل تفسیر لا یلتزم بالضوابط العامه الموضوعه من قبل علماء الإسلام لکل تفسیر،فإنه سینحرف عن مسیرته سواء کان تفسیرا علمیا أو صوفیا أو باطنیا أو کلامیا،لذا فإن جمیع الملاحظات الوارده علی النماذج المذکوره،فی جانب التفسیر العلمی و العصری،لا تختص بتفسیر دون تفسیر،فهی ملاحظات منهجیه یخطئ بها کل من یتجاوزها و یقوم بالتفسیر،لذا فلن

تكون حجه أو دليلا- حاكما لإهمال و ترك التفسير العلمى للقرآن،بل و الإعجاز العلمى الجديد له.إن الأخطاء فى التفاسير موجوده،كما ذكرنا سابقا،فلا يعنى هذا أن نترك كل التفاسير لهذه الحجه،و نحن نرى أن الدكتور محسن عبد الحميد،بعد استعراضه للتفاسير عبر التاريخ،يقول عن هذا الاتجاه العلمى (١):«الذى أعتقده أن من الضرورى أن نستفيد من تطور العلوم و المعارف فى فهم كثير من الآيات الكونيه فى القرآن الكريم،و الخطأ فى التفسير حينئذ لا يكون خطأ فيه،إذ من المسلمات عند العقلاء أنه ليس كل ما يذكره المفسرون،فى تفاسيرهم فى تفسير القرآن صحيح».

على أن الحجه الأقوى،التى يذكرها المعترضون على مثل هذا التفسير،تتلخص، كما رأينا،عند العقاد و عند محمد الصادق عرجون و غيرهم كثير،هو الخوف من تسميه الحقيقه القرآنيه الحقيقه العلميه،ثم يمضى زمن فنكتشف علميا أن هذه الحقيقه ليست علميه،و بالتالى ينتج أن نخطّئ القرآن أو نغير تفسيره عند كل مستجد من الحقائق العلميه،خاصه و أن العلوم تتطور و بشكل سريع يجعلها قد تنقلب من النقيض إلى نقيضه أحيانا،و بذلك نكون قد نزعنا عن القرآن يقينه المطلق المشخص،و سلّمنا أمره إلى التجارب العلميه الاحتماليه أو النظريات العلميه الافتراضيه.و هنا يذكر الأستاد عبد الوهاب خلاف نصا واضحا لا لبس فيه،يدافع فيه عن هذا السلوك و الرأى فيقول (٢):«و بعض الباحثين لا يرتضون الاتجاه إلى تفسير آيات القرآن بما يقرره العلم من نظريات و نواميس،و حجّتهم أن آيات القرآن لها مدلولات ثابته مستقره لا تتبدّل،و النظريات العلميه قد تتغير و تتبدل،و قد يكشف البحث الجديد خطأ نظريه قديمه،و لكن لا أرى هذا الرأى،لأن تفسير آيه قرآنيه بما كشفه العلم من سنن كونيه ما هو إلا فهم للآيه بوجه من وجوه الدلاله على ضوء العلم،و ليس معنى هذا أن الآيه لا تفهم إلا بهذا الوجه من الوجوه،فإذا ظهر خطأ النظريه ظهر خطأ فهم الآيه على ذلك لا- خطأ الآيه نفسها،كما يفهم حكم من آيه و يتبيّن خطأ فهمه بظهور دليل على هذا الخطأ».

و إذا كان هذا الجواب لا- يكفى لأنه يترك فكره التغيّر على العلم قائمه و بالتالى يتغير التفسير معها،فإننا نجد تتمه الجواب الأوفى عند شعراوى الذى يقول،فى كتابه«هذا هو الإسلام»،و فى حديثه عن علاقه الحقيقه العلميه و القرآن،و تأكيده أن الحقيقه العلميه يجب أن تلتقى مع القرآن لأن القرآن كلام اللّه و حقائق الكون خلق ٠.

١- تطور تفسير القرآن-د.محسن عبد الحميد،ص ٢٢٦.

٢- علم أصول الفقه-عبد اللّه خلاف،ص ٣٠.

اللّه،فلا بد أن ينسجما يقول (۱):«إن الناس لا يفطنون إلى أهميه تحديد ما هو العلم؟ لا يقال علم إلا إذا كانت قضيه و أنت تجزم بها و هى واقعه و عليها دليل،بغير ذلك لا يكون علما،و العلم من أجل اكتشاف حقائق الكون مفهوم أن يبدأ بالملاحظه ثم التجربه ثم النظريه ثم الحقيقه العلميه،فلا يقال حقيقه علميه إلا فى نهايه المطاف بأن تسلم،و كل الجزئيات تنطبق على هذه الحقيقه و لا تشذ عنها حقيقه،فإذا جئت لتخضع القرآن لملاحظه علميه نقول لك هذا غلط،لأنه من الجائز ألا تنجح الملاحظه بالتجربه،و إذا جئت لتخضع القرآن لتجربه علميه نقول أيضا هذا غلط، لأنه من الجائز ألا تنفع التجربه،و إذا أردت أن تخضع القرآن لنظريه نقول هذا غلط أيضا،لأن النظريه يمكن أن تخطئ،لكن إذا وصلت إلى حقيقه علميه نقول لك:إن لم يكن فى القرآن ما يؤيدها فليس فيه قطعا ما يعارضها،لكن نحن نقول أيضا إن العلم لا يعرف الكلمه الأخيره باستمرار،ما يسمى بالحقائق العلميه اليوم يخضع للتغيير و التبديل غدا،هنا لا تكون حقيقه».و يضيف شعراوى أيضا:«إذن،فالذين يمنعون أن القرآن قد يلتقى ببعض الحقائق العلميه نقول لهم لا لكن حققوا أولا أنها حقيقه علميه،فإذا وصلت مسأله إلى مرتبه الحقيقه العلميه فالقرآن لا يعارضها، بل يمكن أن يؤيدها».

إذن،فالخطأ ليس خطأ الحقيقه العلميه و إنما خطأنا نحن فى طريقه قراءتنا لها فى القرآن.يجب إذن أن نضع ضوابط لطريقه فهمنا و تفسيرنا للقرآن على ضوء العلم بهذه الدقه لكى لا تشتبه علينا الأمور،لأن أكثر الملاحظات الوارده على التفسير العلمى جاءت من أسلوب التعامل بين الحقيقه العلميه و القرآن،و على هذا الأسلوب،سليما أو خاطئا،كانت الأحكام تطلق على التفسير العلمى للقرآن رضا و قبولا أو رفضا و احتجاجا،على أن من الملاحظات التى ذكرت على هذا التفسير أيضا أنها قد تطغى تلك المباحث عن المقصود الأول فى القرآن،و هو الهدايه و الإعجاز،و هو ما وصف به تفسير طنطاوى أن فيه كل شىء إلا التفسير،لأن إسراف المفسّر من هذا يجعل التفسير ليس بتفسير،حيث يكون أشبه بكتب العلوم و الفنون منه بكتب التفسير.لقد ذكر الأستاذ محمد عبد العظيم الزرقانى فى كتابه «مناهل العرفان فى علوم القرآن»أن من آثار امتزاج العلوم الكونيه بالتفسير ما يلى (۲):۰.

۱- هذا هو الإسلام-محمّد متولى شعراوى،ص ۲۵.

۲- مناهل العرفان فى علوم القرآن-محمّد عبد العظيم الزرقانى،ج ۲ ص ۱۰۰.

۱)مسایره أفکار الناس و معارفهم،و تفسیر القرآن لهم تفسیرا یشبع حاجاتهم من الثقافه الکونیه.

۲)إدراک وجوه جدیده للإعجاز فی القرآن من ناحیه ما یحویه أو یرمز إلیه من علوم الکون و الاجتماع.

۳)دفع مزاعم القائلین بأن هناک عداوه بین العلم و الدین.

۴)استماله غیر المسلمین إلی الإسلام من هذا الطریق العلمی الذی یخضعون له دون سواه فی هذه الأیام.

۵)الحث علی الانتفاع بقوی الکون و مواهبه.

۶)امتلاء النفس إیمانا بعظمه اللّه و قدرته،حینما یقف الإنسان فی تفسیر کلام اللّه علی خواصّ الأشیاء و دقائق المخلوقات حسب ما تصوّرها علوم الکون.

کما أن لامتزاج العلوم الکونیه و الآدمیه بالتفسیر آثارا أخری مشترکه بینهما فیما یأتی:

أ)زیاده الثقه بالقرآن و عروبته و معارفه و إعجازه.

ب)الإیمان بأنه کتاب غنی بکل ما یحتاجه إلیه البشر من ألوان السعاده.

ج)الإیمان بأنه کتاب الساعه و دستور الناس إلی یوم القیامه،یصلح لکل زمان و مکان،و لا یستغنی عن کنوزه و ذخائره إنسان.

إن أکثر الملاحظات و التفسیرات الخاطئه المستشهد بها لدی المعترضین تقوم علی کیفیه و أسلوب تعامل القرآن مع الحقیقه کما ذکرنا،و أحیانا نجد أن المؤیدین و المعارضین فی التفسیر علی ذات الآیه القرآنیه و ذات الحقیقه العلمیه،و لکن أسلوب أحدهما یقود إلی بینه للمعارضین و أسلوب الآخر یقود إلی بیّنه للمؤیدین، فالاختلاف إذن ینصب علی طریقه تعامل و تعبیر کل منهما عن هدفه،و إذا ما اتفقنا علی أسلوب موحّد فإن کثیرا من ضجیج و براهین المحتجین و المعترضین علی التفسیر العلمی تسقط و لا تصلح للاحتجاج بها،لذا فإن الدکتور محسن عبد الحمید یضرب مثلا علی المظهرین اللذین یجب أن یتخذهما التفسیر العلمی فی نظره، فیقول (۱):

«أولهما:تسخیر الحقائق العلمیه فی کشف مدلول الآیه القرآنیه،فاحتمال الخطأ هنا غیر قائم،علی سبیل المثال قوله تعالی قالَ فَمَنْ رَبُّکُما یا مُوسی(۴۹) قالَ رَبُّنَا الَّذِی۶.

۱- تطور تفسیر القرآن-د.محسن عبد الحمید،ص ۲۲۶.

أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى [طه۴۹/، ۵۰]،فإذا جئنا فسخّرنا علم الحياه كلها فى تفسير هذه الآيه و بيان عظمه الخلق الإلهى و دقته كان حسنا و مفيدا جدا،لأننا سنبين هنا سر الإعجاز فى هذه الآيه الكريمه.فنحن هنا نتحدث فقط عن تفاصيل خلق الكائنات و سبل الهدايه المتنوعه الدقيقه و العجيبه التى زوّد اللّه بها تعالى تلك الكائنات،و لم ندّع أن القرآن فيه تفاصيل علم الكائنات،لأنه من المعلوم أن تلك التفاصيل متروكه للعقل يكتشف فيها قوانين الحياه الدقيقه المتنوعه عبر الزمان و المكان.

و ثانيهما:تفسير آيه قرآنيه بحقيقه علميه أو نظريه علميه محدّده المعالم،ففى قوله تعالى أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها [الرعد۴۱/]لا يمكن أن نقطع بأن الآيه تدلّ دلاله قطعيه على كرويه الأرض،أو هى المعنى المقصود فى الآيه،لعدم قيام الدليل القطعى على ذلك لا من منطوق الآيه و لا مفهومها،و لكن نستطيع أن نقول إنه من الاحتمال أن تكون كرويه الأرض ضمن معنى الآيه الكريمه،و كذلك قوله تعالى أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَ فَلا يُؤْمِنُونَ [الأنبياء۳۰/].

فالنظريات العلميه فى نشأه الكون تذهب إلى أن النجوم و الكواكب كانت،فى مبدأ نشوئها،كتله سديميه كبيره جدا تكونت منها تلك النجوم و الكواكب بفعل قوانين طبيعيه فيزيائيه معينه،فإذا جاء المفسّر فادّعى أن المقصود بمعنى الآيه تلك النظريات أخطأ فى مدّعاه،و إذا قال ليس بعيدا أن يكون ذلك المعنى هو المراد كان الاحتمال فى صدق مدّعاه قائما،و حينئذ لم يفعل شيئا إلا أنه استأنس بتلك النظريات فى إلقاء الضوء على معنى الآيه،فإذا أخطأ فى التفسير،لبطلان تلك النظريات فى يوم من الأيام،كان الخطأ خطأ التفسير و ليس بطلانا لمعنى القرآن الكريم فى آيه من آياته».

إن جميع هذه المحاولات التوفيقيه،بين مؤيدى التفسير العلمى و معارضيه، استدعت أن يوضع للتفسير العلمى ضوابط محدده للمفسرين حتى لا يقع أحد فى التقول على اللّه بغير علم،فمن تقيد بها عصمته من الخطأ و الخطل.

و مجمل هذه الشروط التى وضعها العلماء هى (۱):

۱)مراعاه شروط التفسير العامه لكل تفسير و المقره من قبل الأصوليين.۴.

۱- أصول التفسير و قواعده-د.خالد عبد الرحمن العك،ص ۲۲۴.

۲)أن يكون التفسير للآيات الكونيه مطابقا لمعنى النظم القرآنى.

۳)ألا يخرج حد التفسير إلى عرض النظريات العلميه المتضاربه.

۴)أن يتثبت المفسر من النظريات العلميه التى يفسر بها الإشارات القرآنيه الكونيه.

۵)ألا يحمل الآيات القرآنيه على النظريه العلميه حملا،فإن كانت النظريه مطابقه للمعنى فبها و نعمت،و إلا...فلا.

۶)أن يجعل مضمون الآيات القرآنيه الكونيه أصلا للمعنى الذى يدور حوله الإيضاح و التفسير.

۷)أن يلتزم بالمعانى اللغويه فى اللغه العربيه للآيات التى يريد إيضاح إشاراتها العلميه،لأن القرآن عربى.

۸)ألا يخالف مضمونا شرعيا فى تفسيره.

۹)أن يكون تفسيره مطابقا للمفسّر من غير نقص لما يحتاج إليه من إيضاح المعنى،و لا زياده لا تليق بالغرض و لا تناسب المقام.

۱۰)أن يكون مراعيا للتأليف بين الآيات و تناسبها و مؤاخاتها،فيربط بينها لتكون وحده موضوعيه متكامله.

و يبقى السؤال مطروحا عن مدى الحاجه و الضروره التى تجعلنا نطرق تفسير القرآن علميا فى هذا العصر،أ لا يكفى فى دعايه البشر إلى الهدايه المضامين و الأفكار التى فهمها العرب و المسلمون من القرآن فى القديم؟ و لما ذا ندخل هذا الباب الذى كثر فيه الخطأ حتى خشينا على القرآن أن يزداد تفسيرا باطنيا جديدا؟ ثم هل من القرآن نفسه ما يدعونا إلى طرق هذا الباب و يأمرنا به لكى نكون مأمورين شرعا به؟و لو افترضنا أننا لم نطرق هذا الباب فهل نكون بهذا قد حجّمنا القرآن و قيّدناه بعصر دون عصره؟و قللنا من صلاحيته لكل زمان و مكان؟و إذا كان القرآن طالبنا بالتدبّر و التفكّر،أ لا يكفى سلاح العقل و ما قدّمه المتكلمون و الفلاسفه المسلمون لاستيعاب عمليه التدبّر و التفكر القرآنى؟و لا نحتاج إلى تجارب العلماء و بحث المختبرات التى تخرج كل يوم علينا بنظريات علميه جديده و قوانين عن الكون و الطبيعه و الحياه،تنقض فيها ما سبق من نظريات و قوانين كانت تسميها هى نفسها علميه فتجاوزتها إلى غيرها،و لم تتوقف الحياه على شكل دون شكل من هذه النظريات و القوانين؟ و أخيرا،هل نستطيع مثلا أن نستغنى عن التفسير العلمى للقرآن و الإعجاز

العلمی فی هذا العصر،الذی لا یعرف إلا لغه العلم و الحضاره و الطاقه و الماده و النسبیه،و لغه الرقم الحسابی فی الکمبیوترات تتحکم فی کل مفردات حیاته؟ و للجواب علی هذه الأسئله جمیعا کان علینا استعراض أفکار و آراء و مضامین الذین یؤیدون التفسیر العلمی،و ما یعنیه فی العصر الحاضر أمام تصادم الحضارات و الأفکار و صراعها بین الشرق و الغرب،و بین المادیه و الروحیه،و بین معسکرات الإلحاد و معسکر الإیمان و أسلحه العلم و مختبراته و بحوثه،التی تخدم أغراض کل معسکر و کل اتجاه.فهل نستطیع أن نقف علی الحیاد أو نرفض التعامل مع العلم المعاصر و صراع التلسکوبات و الأقمار الصناعیه تزدحم فی الفضاء،و صراع المیکروسکوبات مع الخلیه الحیه و مع مفردات الذره و جسیماتها حتی ضاق العالم من التسمیات الجدیده للاکتشافات داخل کل منها،فاستخدموا الکمبیوترات المتقدّمه لخزن المعلومات عنها بدل الکتب و الأوراق التی لا تتسع لها؟هل نستطیع أن ندّعی أن دیننا و قرآننا صالح لکل زمان و مکان و نحن جالسین علی التّلّ لا نبدی رأیا،و لیس لنا رأی فی کل هذا لأن قرآننا نزل فی غیر هذا العصر و لقوم أمیین فسّروه عند معطیاتهم اللفظیه و البلاغیه،و استخرجوا منه الأحکام التی یریدون و عمّموها،فنحن نطبقها کما هی و نفهم القرآن کما فهموه؟ألا نکذّب نحن القرآن نفسه حینما نضعه هذا الموضع،و هو الذی دعا بأکثر من سبعمائه آیه للتفکر و التدبّر علمیّا بالکون و خلقه و خالقه،و یتوجه بالخطاب،فی خمسین موضعا،للذین یعقلون،و مائه موضع للذین یعلمون، و ثلاثین موضعا للذین یتفکرون و یتفقهون؟ألا نکون مناقضین للقرآن نفسه و هو الذی یخاطبنا مباشره بالجواب علی کیف لفهم حقیقه الخلق أَ فَلا یَنْظُرُونَ إِلَی الْإِبِلِ کَیْفَ خُلِقَتْ(۱۷) وَ إِلَی السَّماءِ کَیْفَ رُفِعَتْ(۱۸) وَ إِلَی الْجِبالِ کَیْفَ نُصِبَتْ(۱۹) وَ إِلَی الْأَرْضِ کَیْفَ سُطِحَتْ ...الخ[الغاشیه۱۷/-۲۰]و إذا کان القرآن هو دلیل و معجزه سیدنا محمد صلّی اللّه علیه و سلّم،و أنه نبی من عند اللّه،فکیف سنحاجج أبناء هذا العصر،علماء و مثقفین و عوام،بأن رسولنا مرسل إلی الخلق کلهم حتی قیام الساعه،و لا نبی بعده لأنه خاتم النبیین،إذا لم یکن هذا الدلیل و هذه المعجزه قائمه بعملها الإعجازی لکل العصور و أبنائها المخاطبین بهذا النداء؟و لو کانت هذه المعجزه معجزه لأبناء العصر الذی أنزلت علیهم فآمنوا بها فی وقتها،فما الذی یجعل أبناء عصرنا و العصور اللاحقه لا معجزه لدیهم سوی الأخبار التاریخیه عن هذه المعجزه،فما الفرق بینها و بین معجزات باقی الأنبیاء الذین مضوا مع معجزاتهم

و ليس لهم دليل اليوم على صدق نبوتهم بمعجزاتهم غير أخبار يرويها التاريخ؟ «إن الإيمان بالنبوّه يقتضى وجود المعجزه،و التصديق الجازم بخوارق العادات يحتاج إلى برهان،فمعجزه محمد صلّى اللّه عليه و سلّم هى القرآن،و لا تزال هذه المعجزه تتحدى منذ أكثر من أربعه عشر قرنا و إلى الآن،أما معجزه الأنبياء السابقين فإنها غير مدركه و لا محسوسه لنا فى الوقت الحاضر» (۱).إذن،فإن المعجزه هى دليل صدق الأنبياء على دعواهم،و لقد كان القرآن و لا يزال هو المعجزه المثبته لنبوه محمد صلّى اللّه عليه و سلّم،و فى ذلك يقول وحيد الدين خان... (۲):«عن أبى هريره عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال:(ما من الأنبياء نبى إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر،و إنما كان الذى أوتيته و حيا أوحاه اللّه إلى،فأرجو أنى أكثرهم تابعا ليوم القيامه).إن هذا الحديث النبوى يعين جوانب بحثنا الصحيحه،فهو يقول إن أهم و سائلنا لمعرفه النبى هو الكتاب الذى جاء به مدّعيا أنه من عند اللّه،و القرآن هو رساله الرسول بين ظهرانينا،كما أنه يبرهن على صدقه،فما الخصائص التى تبرهن على أن القرآن من عند اللّه؟» و مما يذكره وحيد الدين خان فى الإعجاز هو إعجاز القرآن بالتحدى الدائم على أن يأتوا بمثله و نبوءات القرآن الغيبيه،و من ثم الإعجاز العلمى فيه و يقول عنه (۳):

«إنه رغم نزول القرآن قبل قرون كثيره من عصر العلوم الحديثه لم يتمكن أحد من إثبات أيه أخطاء علميه فيه،و لو أنه كان كلاما بشريا لكان هذا ضربا من المستحيل»، و يضيف فى موضع آخر (۴):«فالقرآن الكريم هو المعجزه الداله على صدق نبوه محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و ما عدا القرآن من خوارق العادات التى ظهرت بين يديه فلا تعد من معجزاته لأنها لم تنقل بالتواتر،فضلا عن كون المعجزه بالنسبه إلى آخر الأنبياء لا بد أن تظل قائمه بالتحدى و تلك الخوارق لم تعد قائمه،يمكن أن توجد لدى غير المسلمين قناعات بصدق نبوه محمد صلّى اللّه عليه و سلّم».

إذن،فعلى القرآن أن يقول كلمته الإعجازيه اليوم لكل العالم،و أن يتحدّاهم و كأنه نازل اليوم من عند اللّه،و أن يبقى متحدّيا إلى يوم القيامه لكل عصر بطابعه الذى يتميز به،و عصرنا عصر علم و ثقافه،فهل نجابه العالم بإعجاز بلاغى و لفظى و هو فيه من العلوم و المعارف ما لا يحيط به قلم و لا يحصيه رقم...؟و إذا ما تكاسلنا عن أن نعطيه دوره فإن العمليه لا تبقى فى حدود الاختيار لأن معنى هذا تكذيب۶.

۱- الأصول الفكريه للثقافه الإسلاميه-د.محمّد الخالدى،ج ۲،ص ۲۴۵.

۲- المصدر السابق،ج ۲،ص ۲۴۶.

۳- المصدر السابق،ج ۲،ص ۲۶۶.

۴- المصدر السابق،ج ۲،ص ۲۸۶.

القرآن الذی قال إنه یتحدی العالم کله أن یأتوا بمثله أو بسوره من مثله،و نکذب الرسول صلّی اللّه علیه و سلّم الذی قال:أرسلت إلی الناس کافّه،فکیف یصدّقه العالم الیوم دون معجزه؟فأی کفر بعد هذا؟و ما نفعل بإیماننا إذا کنا نکذب قرآننا و نبینا،و ما الذی یبقی فی الإیمان بعد؟إذن،فالإعجاز العلمی فی القرآن هو معجزه اللّه و رسوله إلی عصرنا،فکیف یجب أن نتعامل به؟

التطبیق العملی من نظریه المنهج إلی التطبیقات العملیه

اشاره

لقد کانت بعض التجارب الفاشله،التی ذکرناها سابقا و التی وقع بها المفسرون للقرآن تفسیرا علمیا،قد دفعت بعض العلماء و الفقهاء لأن یقف موقف المعارض للتفسیر العلمی،و ذلک کان لا بسبب عدم قبول القرآن للتفسیر العلمی و إنما لأن الذین فسّروه آنذاک لم یلتزموا بالضوابط المحدده،سواء للتفسیر بشکل عام و للتفسیر العلمی بشکل خاص،و لذلک وقعوا فی أخطاء کثیره فی مقابله الآیه القرآنیه للحقیقه العلمیه،و لأن حماستهم الزائده دفعتهم،بمناسبه و غیر مناسبه،لحمل آیات القرآن علی المکتشفات و القوانین العلمیه الحدیثه مما جعلها تخرج بالآیات القرآنیه عن معانیها اللغویه و مدلولاتها الشرعیه،و تنحرف بها عن الغایه و الهدف الساميين اللذین جاءت من أجلهما،و مما جعلها أیضا تقع فی کثیر من المتناقضات حتی وصف أحد الکتاب عملهم بأنه (۱)«أشبه بالعبث منه بالدفاع عن القرآن أو إظهار إعجازه،بل ربما أوقع القرآن فی تناقض خطیر بسبب تأییده لنظریتین متناقضتین بدون ضابط أو قانون من لغه أو شرع».و بعد أن حددنا شروط التفسیر العلمی و ضوابطه،فلنأخذ نموذجا جیدا من التفسیرات العلمیه التی التزمت بالضوابط المحدده لمثل هذا التفسیر،بل و وضع هذا النموذج تحت عنوان(المعجزه القرآنیه)للدلاله علی مدی الثقه التی یولیها لهذا الجانب من التفسیر للقرآن.

یبدأ الدکتور محمد حسن هیتو کتابه المعجزه القرآنیه(الإعجاز العلمی و الغیبی) بمقدمه یبنی علیها الکتاب و منهج الکتاب،و هی عن علاقه النبوه بالمعجزه و علاقه شمولیه الرساله بختم النبوه فیقول (۲):«إن نبینا علیه الصلاه و السلام هو النبی الخاتم للنبوه،و رسالته هی الخاتمه للرسالات،و أنها باقیه إلی یوم القیامه،و عامه لکل الأمم فی کل زمان و مکان،و لذلک کان لا بد للمعجزه من البقاء لیعاینها کل من آمن أو دعی إلی الإیمان إلی یوم القیامه».و بعد أن یذکر أن هناک أنواعا متعدده من

۱- المعجزه القرآنیه-د.محمّد حسن هیتو،ص ۱۵۲.

۲- المصدر السابق،ص ۹۰۷.

الإعجاز،كالإعجاز الغيبى و الإعجاز اللغوى و الإعجاز العلمى،و بعد أن يشخص طابع العصر و سياده المعارف العلميه و بناء فلاسفه الإلحاد إلحادهم على هذه الاكتشافات،من خلال ادعائهم أنهم عرفوا السبب و المسبب و العله و المعلول عن طريق العلم اليقين،فلم يعودوا بحاجه اليوم إلى عزو هذه الظواهر،التى كنا نراها، إلى قدره اللّه،و بالتالى وقع التناقض بين الكنيسه و العلم و الدين المسيحى و العلم، لأن الكنيسه بدينها،كما تعرضه،يتعارض مع العلم المعاصر.ثم ظهر الهجوم على جميع الأديان،و منها الإسلام،عن طريق ضعاف الإيمان فى ديار الإسلام،و بسبب ضعف المسلمين و غفلتهم و سيطره أعدائهم عليهم،بعد كل هذا يقول المؤلف:

«و هنا ظهرت المعجزه القرآنيه كالمارد الجبار الذى لا يقف فى وجهه شىء إلا حطّمه،لتهتز الأبراج الوهميه التى بناها فلاسفه الإلحاد بالتمويه و التدليس على غفله من دعاه الدين الحق و بعد عنهم،و لتقول للناس جميعا،من مؤمن و ملحد:مهلا- أيها الناس،فإن هذا الذى وصلتم إليه لن يكون سببا للجحود و الإلحاد،و إنما هو من أعظم دعائم الإيمان و الإذعان...فتنبه كثير من علماء المسلمين إلى آيات الإعجاز العلمى فى القرآن».

إذن،فالإعجاز العلمى كان دعوه للإيمان ضد الإلحاد فى بدء ظهوره،و زاد إيمان المؤمن إيمانا و صار يعاين المعجزه القرآنيه،كما عاينها العرب الأوائل تماما و لكن بلغه العلم لا بأساليب البلاغه و البيان،لأن غايه هذه المعجزه هو الدلاله على أن القرآن كلام اللّه لا من كلام البشر مما يصدق نبوه محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و رساله الإسلام.و لا يدرى المؤلف إلى أى مدى سيصل الإنسان فى المستقبل من حيث العلوم و المكتشفات،و لكنه يؤكد أنه (۱)«على يقين بأنه كلما تقدمت به العلوم سيضع يده على معجزه جديده فى كتاب اللّه،كان فى غفله تامه عنها،ليعيش الإنسان،فى كل زمان و مكان،مع المعجزه القرآنيه آيه بينه لا لبس فيها و لا غموض»،و هو يرى،فى هذا الإعجاز،لكل إنسان و فى كل زمان و مكان معنى قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم(ما من الأنبياء نبى إلا- أعطى ما مثله آمن عليه البشر،و إنما كان الذى أوتيته و حيا أوحاه اللّه إلى،فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامه).

لقد أكد المؤلف،منذ البدايه،على سلامه منطلقه الفكرى لهذا العمل،من خلال ربطه بين شموليه الرساله و ختم النبوه و ضروره وجود المعجزه المصدّقه لهما،۰.

۱- المعجزه القرآنيه-د.محمّد محسن هيتو،ص ۱۰.

و استمراريه هذه المعجزه عبر كل زمان و مكان،و إلا فإن الرساله ليست شامله لكل الناس حتى يوم القيامه،و أن النبوه يجب أن تستمر ما دام هناك أجيال ليس للّه عليهم حجه بدون رسول أو نبى ذى معجزه قاهره لما تعارفوا عليه،و كانت سلامه منطلقه الفكرى أيضا حينما اعتبر التحدّى المعرفى المعاصر الذى أسس الملحدون دعوتهم عليه لصرف النظر عن الإيمان و الدين،يجب أن يجابه بمعجزه تناسب هذا العصر من معرفه و علوم و مكتشفات،حيث أن القرآن كتاب هدايه و إرشاد،و ليس كتاب علم،و لكن بإعجازه جاء لكل العلوم و المعارف بنفس لغاتها و من خلالها،ليصل إلى الإيمان و الدين الحق.و قبل أن يمارس المؤلف تفسيراته العلميه أو ظواهر الإعجاز العلمى القرآنى حدّد منهجه الصحيح لذلك العمل فوصفه بأنه منهج (١)«دون غلو تحمل به آيات القرآن ما لا تحمله من المعانى و الاحتمالات،أو تفريط تعرض به عن كثير من الحقائق الكونيه و العمليه التى لا يجوز الإعراض عنها لجمود التفكير أو قصور فى العلم و المعرفه».

إذن،فالمؤلف بدأ بمقدمه سليمه،علميا و شرعيا،و استخدم منهجا لا تفريط فيه و لا إفراط،لا يخلو من الحماسه للعلوم و لا تقصير عن الحقيقه العلميه أن تلحق بالحقيقه القرآنيه،و كل هذا من شروط و ضوابط التفسير العلمى المطلوب.بعد ذلك ينتقل المؤلف للحديث عن الملاءمه و المناسبه بين الإعجاز العلمى و طابع المثقفين، عربا و أجانب،المخاطبين بهذا الموضوع (٢)«كما نجد المثقفين أكثر تمايلا و طربا عند ما نعرض عليهم وجها من وجوه الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم،لا سيما إذا كان هذا الوجه قطعى الدلاله،بيّنا ظاهرا لا يحتاج إلى الاستنباط و الاستنتاج،و ذلك لأن هذا الوجه ملائم للثقافه التى يحملها أبناء العصر الحاضر،و التى أصبحت قاسما مشتركا بينهم جميعا،و إذا كان هذا شأن مجتمعنا العربى،فمن باب أولى أن يكون هذا شأن غيره من المجتمعات».

بل إن المؤلف يجد أنه لما كان القرآن نفسه يحث الناس على النظر فى ملكوت السماوات و الأرض و مجال الكون و النفس،و يضرب للناس الأمثال ليلفت نظرهم إلى عظمه الخالق من خلال عظمه المخلوق،لذا فإنه يرى واجبا علينا أن نبحث كل علم يكشف عن سر من أسرار القرآن و يثبت إعجازه،كما أنه يصل إلى التأكيد على اعتقاده بأن (٣)«هذا الوجه من وجوه الإعجاز هو أبلغ هذه الوجوه،إذ يستطيع٩.

١- المعجزه القرآنيه-د.محمّد حسن هيتو،ص ١۴٧.

٢- المصدر السابق،ص ١۴٨.

٣- المصدر السابق،ص ١۴٩.

الإنسان،فی کل عصر من العصور،أن یجد بغیته فی کتاب اللّه من الإیمان بأن هذا الکلام لیس من کلام البشر و إنما هو من کلام اللّه،فکلما تقدمت العلوم الإنسانیه کشفت لنا عن سر جدید لم نکن قد اطلعنا علیه من قبل،و هذا وحده کاف لیدل علی أن القرآن لیس من صنع البشر،إذ یستحیل علی البشر،و لو کانوا علی قلب رجل واحد،و بتفکیر رجل واحد،أن یوجدوا مثل هذا الکتاب الذی لم تتخلف آیه واحده من آیاته علی توالی الأیام و کدّ السنین و الأعوام».

إن المؤلف یدرک حقیقه أن القرآن لم ینزل علی أنه کتاب جیولوجیا أو فلک أو غیرهما من العلوم،و إنما هو کتاب هدایه و إرشاد للبشریه الحائره و دستور أو نظام حیاه للإنسانیه (۱)«یجب علینا أن لا ننسی الوظیفه الأساسیه التی جاء من أجلها،ألا و هی هدایه البشر و رسم المنهاج القویم،فلا یجوز لنا بعد أن ننحرف عن الوظیفه الأساسیه لکتاب اللّه،و تحمیل الآیات ما لا تطیق من المعانی العلمیه التی لم تسق الآیه من أجلها و لا نزلت لبیانها،و إنما هی من أوهام القارئ،و ربما انقلبت إلی ضرب من التأویل الباطنی الباطل،کما لا یجوز لنا،فی نفس الوقت،أن نجمد علی معارفنا القدیمه الضیقه و تفسیراتنا الجزئیه المحدوده المبنیه علی تلک المعلومات القدیمه.....مما یؤدی فی النتیجه إلی فهم القرآن فهما غیر سلیم فی ضوء المعارف الحدیثه،و فی الآیات التی لها مساس بالعلوم».

لذا،یعرض المؤلف الفئات الثلاث التی انقسم علیها الناس فی هذا المجال،فئه المحافظین المعارضین للتفسیر العلمی،و فئه مبالغه فی هذا التفسیر العلمی حتی تفسر الآیات علی قبول المفاهیم العلمیه،و فئه وسطی بین هذا الإفراط و ذاک التفریط،و هو یرد علی الفئه الأولی المعارضه للعلوم بقوله (۲):«إننا،نحن المسلمین، مدعوون فی کل زمان و مکان و بنص الشرع إلی الاستفاده من کل حقیقه علمیه،لأن دیننا،دین العلم و المعرفه،لم و لن یتعارض فی یوم من الأیام مع حقائق العلم فی الکون و الحیاه»،و یعتبر موقفها تفریطا فی حق القرآن و إعراضا عن الفهم الحقیقی للآیات المتعلقه بالکون و الحیاه،و قد تقود لإیجاد فجوه بین الدین و العلم مما قد یؤدی إلی ما لا تحمد عقابه،کما حدث للکنیسه.

کما یرد علی الفئه الثانیه،فی غلوها و مبالغاتها،بأنها تحمل آیات القرآن- بمناسبه و غیر مناسبه-علی المکتشفات أو القوانین العلمیه الحدیثه،مما جعلها۲.

۱- المعجزه القرآنیه-د.محمّد حسن هیتو،ص ۱۵۰.

۲- المصدر السابق،ص ۱۵۲.

تخرج بالآیات القرآنیه عن معانیها اللغویه و مدلولاتها الشرعیه،و هی التی وصفها بالبعث کما قدمنا.أما الفئه الثالثه،فئه التوسط بین جانبی الإفراط و التفریط،فهی لم تتجمد جمود الفئه الأولی،و لم تتهور تهور الفئه الثانیه،و هذه الفئه قامت بما یلی:

۱)أخذت الآیات التی لها مساس بالعلوم و فهمتها بناء علی ضوء المعارف الحدیثه الیقینیه لا الظنیه،و فی نطاق قوانین الشرع العامه و قواعد اللغه الثابته،فرأت فیها کل ما یدل کل ذی عقل علی أن هذا القرآن لیس من عند البشر و إنما من عند اللّه.

۲)وقفت عند ظاهره النص القرآنی إذا کانت دلالته قطعیه،و إن کان یتعارض مع بعض النظریات العلمیه الرائجه،جازمه بأن الخطأ فی النظریه العلمیه،و أن علی أصحابها أن یبحثوا عن وجه الصواب فی موضوعها مستنده علی أن العلم لا یتناقض مع الدین،أو القرآن مع القوانین الیقینیه الثابته.

هکذا،یعرض الدکتور محمد حسن هیتو منهجه فی الإعجاز القرآنی فی کتابه «المعجزه القرآنیه»،متسلّحا بکل الضوابط التی وضعها العلماء،فکان کتابه خیر نموذج للتفسیر العلمی للقرآن،حیث فسّر فیه اثنی و عشرین آیه قرآنیه بضوء مفردات العلم الحدیث،کما أنه رد علی مفهوم الإعجاز العددی فی القرآن،کما ورد عن رشاد خلیفه،و ربطه بالتفسیر الباطنی الیهودی،فهو یرفض أن یضع فی القرآن ما لیس فیه بحجه التفسیر العلمی،کما فعل رشاد خلیفه.إن کتاب«المعجزه القرآنیه» هو خیر نموذج للتفسیر العلمی للقرآن،مبدأ و منهجا و تطبیقا،و بمقدار ما نقرأ فیه من علوم و معارف نجد فیه وظیفه القرآن فی الدعوه و الإرشاد و الهدایه متحققه،فلا نضیع وسط معلومات عن أنظمه الخلق و المخلوقات و ننسی رب الخلق و رب المخلوقات و أنظمتها و قوانینها.

و إذا ما أخذنا نموذجا تطبیقیا لمنهج الدکتور محمد حسن هیتو،فإننا سنری مقدار وضوح الإعجاز العلمی فی الآیات القرآنیه التی یختارها منه.ففی تفسیره العلمی للآیه الثامنه عشره،و التی وضعها تحت عنوان وَ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ خَلَقْنا زَوْجَیْنِ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ [الذاریات۴۹/]و شعار(علماء الکون و الحیاه فی قانون الزوجیه الیقینی) یقول:«لقد تکرر ذکر الأزواج فی القرآن الکریم من أوله إلی آخره مرات کثیره،و فی جوانب متعدده من جوانب الحیاه،بل نصت بعض الآیات علی أن کل شیء خلق فی هذا الکون خلق علی قانون الزوجیه،فقال تعالی وَ تَرَی الْأَرْضَ هامِدَهً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَیْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ کُلِّ زَوْجٍ بَهِیجٍ [الحج۵/]،و قال تعالی

وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ [الرعد۳/]،و قال أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ [الشعراء۷/]،و قال جل و علا وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [الذاريات۴۹/]،و قال وَ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى [النجم۴۵/]،و قال وَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ [الزخرف۱۲/]،ثم قال تعالى: سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ [يس۳۶/]،إلى آيات كثيره فى القرآن الكريم،تتكلم عن الأزواج و عن خلقها،و أن هذه الأزواج موجوده فى جميع معالم الكون و الحياه وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

إذن،فالزوجيه لا بد أن تكون موجوده فى كل شىء يمكن للإنسان أن يضع يده عليه،و ليست مقصوره على ما يكون من الذكر و الأنثى فى النبات و الحيوان،أو على ما يمكن أن يتصف بالذكوره و الأنوثه و لو مجازا،لأن الصيغه التى وردت من أبلغ صيغ العموم و أكملها وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

و حينما يستعرض الدكتور هيتو رأى علماء السلف و أقوالهم فى الزوجين يقول بأن فهمهم لهذه الآيه كان ضمن طاقاتهم و إمكانياتهم و معارفهم،فيما وضعوا عليه أيديهم من معالم الكون و الحياه،حيث فسرها الطبرى،عن مجاهد،بأنها بمعنى الكفر و الإيمان و الشقاوه و السعاده و الهدى و الضلاله و الليل و النهار و السماء و الأرض و الإنس و الجن،و روى عن الحسن البصرى أنه قال فى هذه الآيه:الزوجان هما الشمس و القمر،و روى عن ابن زيد أنه قال فيهما هما الذكر و الأنثى...ثم قال الطبرى:و أولى الأقوال فى ذلك قول مجاهد،و هو أن اللّه تبارك و تعالى خلق لكل ما خلق من خلقه ثانيا له مخالفا فى معناه،فكل واحد منهما زوج للآخر و لذلك قيل زوجين،و إنما نبّه جل ثناؤه خلقه على قدرته على خلق ما يشاء خلقه من شىء،و أنه ليس كالأشياء التى شأنها فعل نوع واحد دون خلافه،إذ كل ما صنعته فعل نوع واحد دون ما عداه،كالنار التى شأنها التسخين و لا تصلح للتبريد،و كالثلج الذى شأنه التبريد و لا يصلح للتسخين،فلا يجوز أن يوصف بالكمال و إنما كمال المدح للقادر على فعل كل ما يشاء من الأشياء المختلفه و المتفقه....

و لو أننا تتبعنا كتب المفسرين على اختلاف مناهجهم،من السلف و الخلف إلى عصر النهضه العلميه،لوجدناها متفقه تقريبا على هذا الذى قاله الإمام الطبرى رحمه اللّه تعالى،مع توسّع بعضهم فى تعداد الأنواع التى لها ضد أو نقيض أو ندّ،أو شبيه، و اختصار بعضهم الآخر و التقائه بذكر الذكر و الأنثى،و هذا هو الذى كانوا يشاهدونه

أو يعلمونه رضى اللّه عنهم.و لكن هل هذا الذى ذكروه هو كل ما نستفيده من هذه الآيات التى تتحدث عن خلق الزوجين؟الجواب و بكل تأكيد:لا،و هذا الذى يشير إليه تعالى فى سوره يس سُبْحانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمّا لا يَعْلَمُونَ [يس۳۶/].

إذن،فليس الأمر فى خلق الزوجين مقصورا على ما كان معروفا للناس فى القديم،و إنما هناك أشياء أخرى خلقها اللّه زوجين زوجين مما لم يعرفه الإنسان القديم،و كشفت عنه العلوم الحديثه،بوسائلها العلميه الدقيقه المذهله المعاصره، التى أعطت الإنسان من القدره على الإدراك أضعاف ما كان يملكه الإنسان القديم آلاف المرات،من المجاهر الألكترونيه و المقاييس الدقيقه الحساسيه،و سفن الفضاء و القوانين العلميه.فلقد توصل العلماء فى العصر الحديث إلى إدراك الكثير و الكثير من خلق الأزواج مما كان مجهولا فى الماضى،و مما نفهم به معنى جديدا فى قوله تعالى وَ مِمّا لا يَعْلَمُونَ بل لنفهم ما هذه الآيه و ما فى معناها أنها يستحيل أن تكون من قول البشر،و إنما هى من قول خالق الأرض و السماء و عالم السّرّ و العلن، إذ أخبرت عن الزوجيه فى أشياء لم يكن أهل العصر الأول يعرفونها،و إنما هى من معارف هذا العصر،كما أخبرت الآيات التى معناها بأن الزوجيه فى كل شىء يمكن للإنسان أن يضع يده عليه،فإن أدرك الزوجيه به فبها و نعمت،و إلا فسيدركها الجيل و الأجيال القادمه بما يمكن أن يتوصلوا إليه من معارف و وسائل،و لذلك فإنه يجب عليه أن يتابع البحث عنها.

بعد هذا التقديم،يقوم الدكتور هيتو بعقد فصول الزوجيه فى كل شىء كما كشفتها العلوم المعاصره،فيعقد فصلا حول الزوجيه فى الإلكترون أو الكون و الكون النقيض،و فصل حول الزوجيه فى الخليه الجنسيه،و فصل حول الزوجيه فى الكروموسومات،و فصل حول الزوجيه فى الكروموسومات فى الخليه الجنسيه، و فصل حول الزوجيه فى الجينات وراء الزوجيه فى الكروموسومات،و فصل حول الزوجيه فى تكوين الجينه نفسها وراء سر مجيئها أزواجا،و فصل حول الزوجيه فى تركيب أشرطه الجينه وراء سر الزوجيه،و هو بهذا يجعل اكتشافات العلم فى جميع هذه المفردات العلميه تتحدث عن الزوجيه مصداقا لقول اللّه سبحانه و تعالى فى الآيات المذكوره سابقا،بل يصل إلى حد أن العلم بعد هذه الاكتشافات للزوجيه فى كل شىء،بدأ يبنى كل افتراضاته،حتى النظريه،على هذا الأساس،و من ثم يأتى العلم بتجاربه مؤكدا لهذه الافتراضات و مصدقا.

الزوجيه فى الإلكترون،أو الكون و الكون النقيض

إن الإنسان،أو أى كائن حى آخر،يتكون من أعضاء،و هذه الأعضاء تتكون من أنسجه،و الأنسجه تتكون من خلايا،و الخلايا تتكون من جزئيات،و الجزئيات تتكون من ذرات،و الذرات تتكون من جسيمات،و هذه الجسميات تعتبر أصغر وحده من وحدات الماده.

فجسيمات الذره الأوليه هى:البروتون و النيوترون و الإلكترون،أو بمعنى الموجب و المتعادل و السالب،و لقد كنا نسمع من أساتذتنا أن اللّه خلق من كل شىء زوجين،حتى الذره خلقها اللّه من زوجين هما النواه و الإلكترون الذى يدور حولها، أو هما السالب و الموجب فيهما،إلا أن هذه المعارف أصبحت بديهيه و بدائيه، و ليست هى مما أريد الكلام عنه،و إنما هو أمر وراء الذره،إنه أمر تكوين جسيماتها، فى أصل خلقه الأول،لنضع أيدينا على سر جديد من أسرار الإعجاز الإلهى فى خلقه و آياته.

فى عام ١٩٢٨ خرج العالم الرياضى الشاب بول ديراك،الإنجليزى،خرج على الملأ بنبإ غريب مضمونه معادله رياضيه أصليه تتناول طبيعه الكون.تنبأت هذه المعادله بأن خلق الإلكترون لن يتأتى إلا عن طريق خلق الزوجين،و هو ما يعرف، بالأوساط العلميه الفيزيائيه،بهذا المعنى أيضا(Procreation)،أى خلق الأزواج أو الزوجين.و لم يكن المراد بهذا أن الخلق يكون عن طريق إعطاء إلكترونين أو بروتونين أو نيوترونين،و إنما كان بمعنى خلق الإلكترون و الإلكترون النقيض،علما أن هذه النقائض الماديه لا يمكن أن يجتمع بعضها لا فى الزمان و لا فى المكان.

فبمجرد خلق الزوجين فى عالمنا لا بد أن يهلك أحدها الآخر و يفنيه حين التقائه إياه،هذه هى المعادله التى أتى بها بول ديراك،و التى تحمل هذا النبأ الغريب،مما جعل الناس لا يلقون لها بالا،إذ لم تكن عقولهم تهيأت لهذا بعد.و لكن هل تحقق ما تنبأ به ديراك؟لقد كان العلماء فى الماضى يطلقون إلى الجو أجهزه علميه داخل بالونات لتسجيل سر الأشعه الكونيه التى تأتى من السماء،و فى عام ١٩٢٣ استقبل أحد العلماء الأمريكيين،المهتمين بدراسه الأشعه الكونيه،و هو كارل أندرسون، استقبل مسارات هذه الأشعه على ألواح حساسه،و هذه المسارات بمثابه البصمات عند الإنسان،تحدد للعلماء صفات تلك الأشعه و طبيعتها و شحنتها و شخصيتها.لقد لفت نظره من بين المسارات الكثيره المسجله مسيره غريبه،ففى لحظه واحده خاطفه ظهر على لوحه الحساس ولاده جسمين من نقطه واحده،انطلق أحدهما إلى

جهه اليمين و انطلق الآخر إلى جهه اليسار،مما جعل أندرسون حائرا فى هذا المشهد،إذ أن المسارين لألكترونين يقينا،و لكن ما هو السبب الذى جعلهما يبتعدان و يفترقان أحدهما عن الآخر و كأن أحدهما عدو لقرينه؟لم يتمكن أندرسون من معرفه السبب،و ذلك لأنه لم يكن قد اطلع،وقت مشاهدته لهذه الظاهره،على معادله ديراك الرياضيه التى أشرنا إليها،و التى كان قد نشرها قبل ثلاث سنوات فى إحدى المجلات العلميه البريطانيه،إذ لو كان قد اطلع عليها لما تحيّر تلك الحيره فيما رأى و شاهد.و جاء بعد أندرسون الأمريكى عالمان بريطانيان عرفا ما توصل إليه أندرسون عمليا بألواحه الحساسه،كما عرفا المعادله التى أشار إليها ديراك قبله نظريا،و بجمعهما،بين نتيجه أندرسون العمليه و معادله ديراك الرياضيه النظريه،أدركا السر العظيم فى مسار الإلكترونين،و أشارا إلى أن معادله ديراك التى تنبأت بخلق الزوجين صحيحه تماما،على ما أثبته أندرسون بألواحه.

لقد كان ذلك اليوم الذى توصل فيه العلماء إلى تسجيل بدايه خلق أصغر و أبسط زوجين فى العالم،كان يوما مشهودا فى تاريخ العلم.و من أجل هذا الاكتشاف المثير الذى توصل إليه ديراك،من خلال معادلته العلميه الرياضيه،حصل على جائزه نوبل فى العام التالى لتحقق ما تنبأت به معادلته،و هو بالنسبه لنا نحن المسلمين يعتبر يوما مشهودا،إذ أثبت فيه العلم الحديث،فى أدق مباحثه و أبدع اكتشافاته،ما أخبر به القرآن الذى سبقت آياته معادله ديراك بأربعه عشر قرنا،إذ قال تعالى وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [الذاريات۴۹/]،و قال سُبْحانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمّا لا يَعْلَمُونَ [يس۳۶/].

نعم،...إنه ليوم مشهود لنا نحن المسلمين،إذ ثبت للعالم أجمع أن هذا القرآن لم يكن من صنع البشر،و إنما هو الآيه القاطعه الناطقه بأنه من صنع خالق الكون و الإنسان و الحياه،و العالم بكل صغيره و كبيره مما خلق على أبدع نظام و أتم تقدير، و هل هذا كل ما فى الأمر بالنسبه للأزواج؟..الجواب،لا.لم يقف الأمر عند هذا الحد الذى ذكرناه،و ذلك لأنه وضع أيدينا على سر جديد و هو أن هذا الكون،فى أرضه و سمائه و جزئياته و ذراته،ليس فى الحقيقه إلا طاقه اتخذت صوره الماده بجسيماتها و ذراتها،و أن هذه الجسيمات حينما تجسدت تجسّدت على شكل زوجين و لم تتشكل مفرده.فمولد أو خلق الزوجين اللذين ظهرا على لوح أندرسون لم يظهرا من عدم،بل كان من وراء تخليقهما طاقه،أو ومضه ضوئيه،و هذه الومضه تنطلق على هيئه موجه،و تجرى فى الكون بسرعه الضوء،۱۸۶ ألف ميل فى الثانيه،

و الواقع أن هذا الكون-على قدر ما نعرفه الآن-له مظهران،فهو أحيانا ندركه أو يظهر لنا على شكل موجه،و هذه الموجه لا زمان لها و لا مكان،أى فى المقاييس الرياضيه الحسيه،و أحيانا أخرى قد تتخلى الموجه أو الطاقه عن صفتها الطليقه المتحرره،و تتجسّد على هيئه ماده كجسيمات ذريه،و هى فى هذه الحاله تأتى على قانون اللّه الأزلى فى الخلق زوجين زوجين..و فى المفاعلات النوويه الجباره يعيش العلماء مع خلق الأزواج ليل نهار،و فيها يسجلون تجسيد الطاقات أو الموجات على هيئه جسيمات كثيره و على الألواح الحساسه،أو فى غرف الغيوم التى توضح بدايه خلق الأزواج،يسجل العلماء مولد الإلكترون و نقيضه أو البروتون و نقيضه أو النيوترون و نقيضه،ثم إن هناك جسيمات ذريه أخرى كثيره،و هى غير الجسيمات الأساسيه الأوليه الثلاثه،التى ذكرناها،فما من جسيم منها يتجسّد-صغر شأنه أو كبر-إلا و يظهر معه فى نفس اللحظه نقيضه،ثم إنه فى كل حاله من هذه الحالات يظهر الزوجان و يتخلقان أمام أعين العلماء،لكن الشىء المثير هو أن النقيض لا يمكن أن يعيش فى مكان واحد مع نقيضه.

فإذا تقابل إلكترون مع إلكترون نقيض،فلا بد أن يزولا و يتخلّيا عن تجسّدهما المادى و يعودا إلى سيرتهما الأولى،أى إلى موجات متحرره.و الشىء الذى يعتبر أكثر إثاره و دهشه أن لكل شىء فى هذا الكون نقيضا ما عدا شيئا واحدا ألا و هو الطاقه أو الموجه المتحرره أو النور،فلا نقيض له،و إنما تظهر النقائض فقط عند ما تتجسّد هذه الموجه أو هذا النور أو تلك الطاقه،و يؤدى إلى خلق الزوجين.لما ذا و كيف؟لا أحد يدرى.

فطبيعه الكون تضع أمامنا حقائق الوجود بصوره مثيره،فبدايه الخلق أزواج، و الأزواج جسيمات أو هى تجسيد لطاقه أو ومضه أو نور،خذ منها ما تشاء،فلا أحد يستطيع هنا أن يؤكد أمرا أو يحدّد شيئا،كما يقول الدكتور عبد الحسن صالح فى بحثه عن الأزواج،و كلما تعمّقنا فى طبائع الأشياء،و ظننا أنا قد وصلنا فيها إلى قرار أشاحت الحقيقه بوجهها و تجلّت لنا أكثر إثاره و وضعتنا فى مآزق فكريه جديده...إن الذى نعرفه حقا أن الماده تجسيد لطاقه أو قوّه،و هذه الطاقه وراء حدود العقل و الخيال،و أن هذه الطاقه المتجسّده تتجسّد أمام أعيننا أزواجا أزواجا،و لكن ما ذا يعنى هذا...؟إنه يعنى،و بكل ثقه،ما أخبر اللّه عنه قبل قرون طويله مما يدلّ على عظمته و علمه و قدرته،و مما يدلّنا دلاله قاطعه على أن هذا القرآن كلامه و وحيه،إنه يعنى قوله تعالى: وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [الذاريات۴۹/]،كما

يعنى قوله سُبْحانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمّا لا يَعْلَمُونَ [يس۳۶/].و لكن هل هذا كل ما فى الأمر؟....و هل اقتصرت المكتشفات العلميه على اكتشاف الزوجين فى الجسيمات الذريّه من الإلكترون و نقيضه أو البروتون و نقيضه أو النيوترون و نقيضه،أم أنهم وضعوا أيديهم على أمور أخرى ربما كانت أكثر إثاره و دهشه فى هذا الكون....؟ لا شك أن ما ذكرناه لم يكن كل ما فى الأمر مما يتعلّق بالآيه،فقد قال تعالى وَ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ .إذن،فلا بد أن تكون هناك أمور أخرى عرفها الإنسان المعاصر مما لم يكن يعلمه الناس قديما،و فيه الإثاره و الدهشه مما يذهل عقل الإنسان،و مما يدل دلاله قاطعه على إعجاز القرآن.

الكون و الكون النقيض

لقد سيطرت فكره الخلق أزواجا،بعد معادله ديراك و ألواح أندرسون و تجارب العلماء فى المعامل الذريّه الضخمه،لقد سيطرت فكره الخلق أزواجا على عقول العلماء،و صار من البديهيه اليقينيه عندهم أنه من تمام انتظام الكون و تعادله و توازنه أن يكون الخلق فى كل شىء على طريقه الأزواج،و كأنهم اتخذوا من قوله تعالى وَ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ،كأنهم اتخذوا من هذه الآيه دستورا لمباحثهم العلميه،فكل شىء فى هذا الكون يجب أن يكون على نظام الزوجيه، فخلق الإلكترون لا بد أن يصحبه خلق الإلكترون النقيض،أو البوزيترون،كما بيناه فى الفقره السابقه،و خلق النيوترون لا بد أن يصاحبه خلق النيوترون النقيض....

هكذا...

و لكن صفات الإلكترون تخالف و تناقض تماما صفات البوزيترون أو الإلكترون النقيض،فإذا دار الإلكترون حول نفسه من اليمين إلى اليسار دار الإلكترون النقيض من اليسار إلى اليمين،و إذا حمل الإلكترون شحنه كهربائيه سالبه حمل البوزيترون شحنه موجبه،و إذا كان المجال المغناطيسى للألكترون يتّجه إلى الأعلى،كان المجال لنقيضه يتجه إلى الأسفل،من أجل هذا كان من المستحيل أن يجتمعا،فإذا ما قدّر اجتماعهما كان لا بد أن يفنى أحدهما الآخر،و هذا الصراع العنيف الذى يؤدى إلى الفناء يشهده العلماء فى معاملهم و فى طبقات الجو العليا و فى الفضاء الخارجى،إذ كثيرا ما تتجسّد الطاقه،و عند ذلك تظهر الجسيمات الذريه أزواجا،فأما الذى فى عالمنا فيبقى،و أما الذى جاء نقيضا لجسيمات عالمنا فلا بد أن يتخلّى عن تجسّده و يفنى،و يعود ومضه سائحه فى هذا الكون الرهيب.

و بهذه الحقائق اليقينيه،التى وضع العلماء أيديهم عليها و آمنوا بها،أصبحوا يتساءلون:ما دام الأمر كذلك،فهل يمكن أن يكون هناك ذره و ذره نقيض لها،أو ماده و ماده نقيض لها،أو كون و كون نقيض له،إذ لا بد لكل شىء أن يكون زوجين...؟...

و بمواصله البحث توصل العلماء إلى تخليق ذره هيدروجين نقيضه،إلا أن تخليقها لم يدم لأكثر من لحظه واحده خاطفه،إذ جاء كل ما فيها معاكسا لذره الهيدروجين المعروفه،و لا يمكن أن تعيش إلا فى عالم آخر غير عالمنا،و هذا الأمر مستحيل فى عالمنا،إذ لا بد لها أن تصطدم فى لحظه خاطفه،بجزئى من جزئيات الهواء،أو أى شىء فيه نقيضها لتحطمه و يحطمها،و تعود إلى طاقه سابحه فى هذا الكون.بعد هذه التجربه و هذا الاكتشاف تطورت معارف العلماء و أصبحوا يوقنون أن فكره خلق الأزواج ليست قاصره على الجسيمات الذريه،بل تعدّتها إلى أنه لكل ذره فى هذا الكون ذره نقيضه لها،و هذا يعنى أن خلق الأزواج لا بد أن يمتدّ إلى جزئيات الخليه،بل إلى الكون بأسره من الأرض و النجوم و الكواكب و المجرات،إذ لا بد لها أن تكون أزواجا ما تَرى فِى خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ [الملك٣/].

و هذا يعنى أيضا أن بناء الكون النقيض فى ذراته لا بد أن يكون معكوسا أو نقيضا لبناء عالمنا الذرّى،بما فيه من شموس و أقمار و كواكب،و نحن لا يمكننا أن ندرك هذا،و لا يمكننا أن نفرّق مثلا بين النجم و نقيضه لأننا نراهما بواسطه الضوء الواصل إلينا منهما،و قد ذكرنا أن النور لا نقيض له،و إنما يظهر الزوج أو الجسم و نقيضه عند تجسّد النور أو الطاقه،و لكننا يمكننا أن ندرك النجم و نقيضه مثلا عند ما يقترب أحدهما من الآخر و يتلاحمان،و يبدأ كل منهما بإفناء الآخر و تحويله إلى موجات ضوئيه لا قبل للعقل بتصورها،بل لا قبل للخيال بذلك،و ذلك،كما يقول العلماء، لو تقابل مثلا إنسان من عالمنا مع إنسان من العالم النقيض سيتحولان فى لحظه خاطفه إلى طاقه ناتجه عن انفجار كونى جبار لا يقل عن الطاقه المتحرره من تفجير مائه ألف قنبله من القنابل الهيدروجينيه،فكيف لو تقابل نجمان أو مجرتان...إنه لا يمكن للعقل أن يتصوّر ما ذا سيحدث.

و من أجل هذا كان هذا التباعد الهائل فى الفضاء بين المجرّات و عوالم هذا الكون الرهيب الرحيب،فالمسافه بين المجرات لا تقاس بالأميال و لا بملايين الأميال و إنما بملايين السنين الضوئيه.إن الذى دفع العلماء إلى هذا التفكير المثير فى خلق الكون و الكون النقيض إنما هو الواقع الذى رأوه فى تجسيد الإلكترون

و الإلكترون النقيض،و ما قاموا به من تخليق ذره الهيدروجين النقيضه،و ما إلى ذلك مما ذكرنا،مع ما أصبح يقينا عندهم من الوحده فى الخلق على كل المستويات، و التى تستلزم وجود الماده و الماده النقيضه،أو بعباره أخرى أوضح فى موضوعنا ألا و هى أنها تستلزم وجود الخلق أزواجا.

لقد عكف العالم السويدى الشهير(أوسكار كلاين)سنوات طويله على دراسه هذا الموضوع و خرج برأى يقول:«إن الماده و الماده النقيضه لا بد أن تكونا قد ظهرتا فى وقت واحد،و لا بد أن تتساويا تماما،بمعنى أن نصف الأجرام السماويه قد جاء و ظهر من ماده عاديه و نصفها الآخر قد خلق من ماده نقيضه»..و ذهب عالم البلازما النوويه«هانز ألفين»إلى أبعد من هذا،فنشر بحثا بعنوان«نقيض الماده و الكون»شرح فيه فكره ظهور الكون و الكون النقيض و كيف ظهرا،ثم بوعد بينهما و عزلا حتى أمكن أن يعيشا إلى اليوم المعلوم».

و لا يسعنا،نحن الناظرين إلى هذه النتائج العلميه التى لا تحتاج إلى تعليق،إلا أن نردد قوله تعالى سُبْحانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمّا لا يَعْلَمُونَ [يس۳۶/]،كما أننا لنتمايل طربا و نهتز نشوه عند ما نعرف أن العالم الحديث،بعلومه و معارفه و فى أدق مباحثه و نظرياته،قد اتخذ من آيات القرآن دستورا له يبنى عليه حضارته و تطلعاته و طموحاته،و يردد كما يردد كل مؤمن وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [الذاريات۴۹/].

أيها القارئ الكريم:قل لى بربك...من الذى علّم ذلك الأمّى فى شعاب مكه و أوديتها،من الذى علمه أسرار الكون و الحياه و الذره و الخليه مما لم يكن الإنسان يعلمه لا بعقله الظاهر و لا بعقله الباطن،و مما لم يصل إليه و لا حام حوله...؟ لا شك أنه اللّه،الذى خلق فسوى و الذى قدر فهدى،و إنى لعلى يقين بأنه ما من منصف يقع نظره على هذه الآيه و هذه النتائج العلميه المذهله إلا و يجد نفسه مضطرا لأن يحنى رأسه تواضعا للحقيقه،و تعظيما للخالق و اعترافا بأن هذا الكتاب المعجز ليس من قول البشر.

بعد أن ينتهى الدكتور هيتو من البرهنه،فى علم الذره و الفضاء و الفلك،على وجود الزوجيه فى كل تركيباتها،و وجودها المادى،يعود للبرهنه على الزوجيه فى علم الحياه،و سنحاول اختصار ما قاله فى هذا الصدد،حيث يدلل على الإعجاز القرآنى فى حديثه عن الزوجيه من خلال الخليه الحيه،و من خلال الزوجيه فى الخليه الجنسيه،و من ثم فى الكروموسومات،و من ثم فى الجينات،و من ثم فى

أشرطه الجينه الداخليه نفسها حتى يصل إلى أن كل الوجود،سواء كان ذره ماديه أو خليه حيه أو كونا كاملا أو جسما كاملا،إنما يقوم على أساس الزوجيه فى كل بنيانه.

ففى حديثه عن الزوجيه فى الخليه الجنسيه كنموذج للخليه الحيه عموما،يجد الدكتور هيتو أن العلم الحديث قد توصل ليس إلى الزوجيه فى وجود الكائن الحى من خلال نطفه الذكر و بويضه الأنثى،كما هو معلوم فى الظاهر فقط،و إنما وصل العلم إلى أن فى كل نطفه للذكر زوجين أيضا،ففيها نطفه ذكريه و أنثويه بنفس الوقت،فنطفه الرجل فيها الذكر و الأنثى،و حينما تلقح البويضه لدى المرأه فإن كانت الملقّحه صفات ذكريه جاء الولد الذكر منها،و إن كانت الملقحه صفات أنثويه كانت الأنثى منها،و يؤكد هذا بالآيه القرآنيه أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً(٣۶) أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى(٣٧) ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوّى(٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى [القيامه٣۶/-٣٩]، أى فجعل من نطفه الرجل الذكر و الأنثى،و تفسره الآيه الأخرى وَ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى(۴۵) مِنْ نُطْفَهٍ إِذا تُمْنى [النجم۴۵/،۴۶].فالآيه صريحه فى أن الذكر و الأنثى من نطفه الرجل و منيه،و أن هذا المنى يحمل الذكور إلى جانب الإناث أزواجا أزواجا.

أما الزوجيه فى الكروموسومات فيتحدث عنها العلم،كما يذكر الدكتور هيتو،من خلال عدد هذه الكروموسومات التى جميعها زوجيا،فهى فى خليه الإنسان فى نواتها سته و أربعين كروموسوما،و فى البقر ستون كروموسوما،و هكذا نجد أن نوع الكائن الحى يختلف باختلاف عدد الكروموسومات فيه.و لما كانت هذه الكروموسومات دائمه الانقسام بسبب انقسام الخليه لتعويض الجسم عن الخلايا التى تموت باستمرار،و التى تقدر بالملايين،فإن انقسامها نفسه يحمل نفس الزوجيه فى الكروموسومات الأصليه،و أى تغير فى عدد الكروموسومات يعنى تغير جنس الحيوان،و حينما تنقسم هذه الكروموسومات إلى أزواجها فإن كل زوج يعطى منها زوجا آخر شبيها له مائه بالمائه استعدادا للانقسام و التكاثر،فيصير فى الخليه سته و أربعون زوجا،ليعود العدد بعد الانقسام إلى ثلاثه و عشرين زوجا،و لتستمر مسيره الحياه و يستمر الحفاظ على الأنواع سُبْحانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمّا لا يَعْلَمُونَ [يس٣۶/].و لكن هل هذا هو كل ما فى الأمر من أسرار الأزواج؟كلا،فحتى حينما تنقسم الخليه الجنسيه إلى ثلاثه و عشرين زوجا،لتكون بعد التلقيح مع بويضه المرأه المنقسمه أيضا إلى ثلاثه و عشرين زوجا، ليعود العدد إلى سته و أربعين زوجا لتكوين الإنسان ذاته،فالخليه الجنسيه فى

انقسامها إلى نصف العدد الزوجى فى كل من النطفه و البويضه إنما هى أعظم دليل على الزوجيه حتى فى عمليه التلقيح الجنسيه.و يقول الدكتور هيتو:«و لكن أين سر الأزواج فى هذا؟ألسنا نتكلم عن الأزواج؟بلى..إننا نتكلم عن الأزواج،و السر هنا يكمن فى أن الحيوان المنوى الذى يحمل،كما ذكرنا،نصف عدد الأزواج التى كانت تحملها الخليه الجنسيه من الكروموسومات،إن هذا الحيوان عند ما يلقح البويضه فى رحم المرأه،و تتكون الخليه الأولى،نجد أن كل كروموسوم من الكروموسومات الثلاثه و العشرين تندفع فى هذه الخليه الجديده و كأنها تبحث عن شىء مفقود،و إذا بكل واحد منها يبحث عن زوجه و قرينه الذى انفصل عنه فى الخليه الأساسيه،فإذا ما التقيا تلاصقا،كما يتم التلاصق بين كل زوجين فى حياتنا الظاهره،و كأن أحدهما يدلى للآخر بأسراره و يطلعه على باطنه و يتبادل معه المعلومات السريه التى لا يعلمها إلا خالقه،و التى سيتكوّن منها المولود الجديد».

على أن الزوجيه فى العلم لم تقف عند حدود الزوجيه فى عدد الكروموسومات، بل إن العلم،بعد بحث دقيق عميق فى هذه الكروموسومات،و بعد استخدام العلم مجاهر كبيره للنظر إليها،وجدها تتكون من جينات صغيره متراصّه يبلغ عددها على الكروموسوم الواحد عشرات الآلاف،و هى تقوم بمهمه حفظ السجلات الوراثيه للإنسان.فبناء على هذه الجينات تتحدد صفات الإنسان و لونه و شكله و صوته و طبيعته و طوله و لون شعره و لون عينيه و كل ما يتعلق بأوصاف الإنسان،و بسبب هذه الجينات أيضا تنتقل الصفات الوراثيه من الجد إلى الآباء،و من الآباء إلى الأبناء، و اكتشف العلم أن هذه الجينات تتكوّن،هى أيضا،من أزواج و لم تأت فرادى،و لهذا كان الشبه بين الولد و أبيه،و الأب وجده من جهه،و بين والدته وجدته من جهه أخرى،و حيثما تفوّقت جينه أحدهما على الآخر ظهر التعبير فى شبه الولد بأحدهما.

إذن،حتى فى هذه الجينات وجدت الزوجيه،فلو افترضنا جدلا أن الخليه تحتوى على أربعين ألفا من الجينات،فمعنى هذا أن عشرين ألفا منها جاءت من الأب، و العشرين ألف الأخرى جاءت من الأم،فهى تحمل عشرين ألف زوج من الجينات المشتركه التى تحمل صفات الأم و الأب معا.

و لكن هل تقف الزوجيه عند هذا الحد لمعرفتنا بالجينات؟لا.فالعلم بدأ يبحث فى سر هذه الجينه و كيفيه حفظها للصفات البشريه،بل و كيفيه التأثير عليها،فما ذا وجد؟وجد العلم أن الجينه الواحده قد حملت سرا من الأسرار التى أدى اكتشافها إلى إثبات إعجاز القرآن و إظهار عظمه الخالق،إذ ثبت أنها تتكون من الأزواج أيضا،

و ذلک أن کل جینه من هـذه الجینات تعتبر معلومه مستقله تعمل لتوریث الکائن الحی صـفه محـدده،و بعـد التعمق فی تکوینها وجد أن هذه الجینه تتکون من شـریط قد یفرد و قد یطوی،فإذا أرید من الشریط أن یقوم بمهمته و ینفذ خطته الوراثیه المرسومه له انفرد و اسـتقام،و هو لـدقته لاـ یکـاد یری،إذ أن عرضه لاـ یزیـد عن جزءین اثنین من ملیون جزء من الملیمتر،فإذا ما انتهی من عمله طوی نفسه و عاد إلی ما کان علیه علی الکروموسوم کحبّه،أو عقـده صـغیره،لکن هذه الجینه لم تتکون من شـریط واحد و إنما تبین،بالفحص و التدقیق،أنها علی هیئه شـریطین اثنین یلتفّ أحدهما علی الآخر و یحتضـنه کالضـفائر المجدوله،و حتی هذه الضفائر کثیرا ما تأتی أزواجا علی شکل زوجین اثنین،و یلتف کل زوجین منها بالزوجین الآخرین،علی أنه قد تتکرر هذه العملیه مره ثالثه فی زوج ثالث...و هکذا نری أن هذا الأمر قد فاق التصوّر،و تجاوز حدود الخیال،و کأن کل شـیء فی هذا الکون یقول سُبْحانَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْواجَ کُلَّها مِمّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمّا لا یَعْلَمُونَ [یس۳۶/].

إن هذه الشـرائط التی تتکون منها الجینه،و التی جاءت علی شـکل شـریطین مجدولین،هی التی سجلت علیها الملایین و الملایین من الصـفات السـریه للکائن الحی،و کأنها کلمه السـر فیه،و هی التی حیّرت المفکرین و العباقره و علماء الحیاه، فما هو سـر هذه الشـرائط التی سـجلت علیهـا ملاـیین الصـفات،و التی جاءت أزواجا، و ما هی حقیقتها،و هل هی أیضا احتوت علی سـر آخر من الأزواج فی ترکیبها جاء وراء ظهورها أزواجا؟..الجواب نعم،و بکل تأکیـد طبقا لقانون اللّه الأزلی وَ مِنْ کُلِّ شَـیْءٍ خَلَقْنا زَوْجَیْنِ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ [الذاریات۴۹/]...و هنـا یصـل العلم إلی خاتمه المطاف الـذی ما بعـده مطاف ألا و هو الزوجیه فی سـر الترکیب الأساسی لأشرطه الجین الزوجیه،و هو الترکیب الأولی لوجودها الحیوی.

لقـد تـابع العلمـاء جهودهم فی البحث عن حقیقه الجینه و مکوناتهـا إلی أن جـاء العالمان(جیمس واتسون)،المتخصـص فی علم البیولوجیـا،و(فرنسـیس کریـک)، المتخصـص فی علم الفیزیـاء الکیمیائیه،و تمکّنا عام ۱۹۵۲ من اکتشـاف حقیقه الأشـرطه الـتی تتکوّن منها الجینه التی جاءت علی شـکل أزواج علی شـکل ضـفائر مجدوله أو سلالم حلزونیه ذات درجات متتابعه بعضها فوق بعض،و التی تحتوی علی أسـرار الحیاه بالنسبه للکائن الحی،و بهذا الکشف وضعا أیدیهما علی أعظم سر من الأسرار التی تحمل صفات هذا الکائن الحی العجیب الغریب المعجز المذهل، و استحقا بناء علی ذلک جائزه نوبل.

لقد أثبت هذان العالمان أن هذه الأشرطه التى تحفظ أسرار الحياه و الصفات الخاصه للكائن الحى،أنها تتكون من عناصر الأرض،و ذلك لأن الإنسان خلق منها، فأثبت أن هذه الأشرطه تتكون من أربعه قواعد نتروجينيه و هى:«أدنين،و جوانين و سايتوزين و ثايمين»،و لقد ذهل العلماء حينما رأوا أن هذه المركبات قد جاءت فى كل كائن حى أزواجا،فالأدنين دائما يتزاوج مع الثائمين،و الجوانين دائما يتزاوج مع السايتوزين،و لا يمكن أبدا أن يتزاوج الأدنين مع الجوانين،و لا الجوانين مع الثائمين،و لا السايتوزين مع الأدنين،و لا الأدنين مع السايتوزين،كما لا يمكن أبدا أن تختل هذه الأزواج فى أى كائن من الكائنات الحيه و إلا كانت الكارثه الوراثيه.

و لم يقف الأمر عند هذا الحد،بل تعداه إلى أن كل واحده من هذه القواعد، الأربعه تتصل بسكر خاص اسمه(ريبوز)،و هذا السكر يتصل بجزئى من الفوسفات ليكوّن معه زوجا و لا يبتعد عنه و لا ينفصل منه،و بعد ذلك تتكرر هذه الأزواج فى جزيئاتها الوراثيه ملايين المرات،و كل واحد منها يعرف مكانه من الخليه،كما يعرف زوجه و طبيعته و نوعه فيقترب منه و يرتبط به..و إذا ما عرفنا أن الخليه الواحده من جسم الإنسان تحتوى على ثمانيه بلايين من هذه القواعد الأربعه،و كلما ولدت خليه جديده أخذت معها هذا العدد من البلايين إلا فى الخليه الجنسيه،إذ أن الحيوان المنوى يحمل نصف هذا العدد ليلتقى مع البويضه التى تحمل نصف العدد أيضا لتتكون الخليه الأولى،التى تحمل البلايين الثمانيه،و بعد ذلك تبدأ الأزواج من هذه القواعد الأربعه بإصدار أوامرها لتتكوّن الجينه.إذا ما عرفنا هذا أدركنا سر الزوجيه الذى تحدّث عنه القرآن فى كل شىء.و هكذا يصل الدكتور هيتو فى نهايه فصل الزوجيه فى كل شىء هذا إلى القول«و لا يسعنا،فى نهايه المطاف فى عالم الأزواج فى الكون و الحياه،و الذى رأينا فيه من خلال مكتشفاتنا و علومنا الحديثه ما يدل دلاله قاطعه على إعجاز القرآن فى مضمار الأخبار عن أسرار الخلق فى أعمق أعماقه،مما كان من المستحيل معرفته على أهل العصر الذى نزل فيه القرآن،و مما لم يعرفه الإنسان إلا فى العصر الحديث،مما طوّره من الوسائل البصريه و توصل إليه من وسائل الكشف و المعرفه،لا يسعنا إلا أن نردد قوله تعالى سُبْحانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمّا لا يَعْلَمُونَ »[يس۳۶/].

أما النموذج الثانى الذى نأخذه فى إطار التفسير العلمى للقرآن،فهو نموذج يختلف عن النموذج الأول،فهو لا يعتبر نفسه أنه يفسر القرآن علميا،و لكنه يشير إلى ما أسماه التوافقيه بين آيات القرآن و حقائق العلوم المكتشفه حديثا،كما أنه،حين

يشير إلى آيات القرآن،يستخدم كلمه دقيقه رقيقه فى التعبير إلى إشارتها للعلوم و حقائقه،يستخدم كلمه(لمسه،و لمس)و يقول (۱)«بإمكانيه التقاء الحقيقه العلميه بعد صدق نظرياتها و افتراضاتها و تجاربها مع حقيقه القرآن الكريم،لأن القرآن الكريم هو كتاب الكون المفتوح».إنه لا يساوى بين النظريه العلميه و الحقيقه القرآنيه،لأن النظريه قد تصدق و تكذب و قد تكذب نفسها غدا،فإذا ما سئل ما النقاط التى اقترب فيها العلم بنظرياته و حقائقه من الحقيقه القرآنيه؟،كان الجواب (۲)«لا نقاط اقتراب بين حقيقه القرآن و نظريات العلم،لكن هناك اقتراب و لقاء و توافقيه بين حقيقه القرآن و الحقيقه العلميه».هذا النموذج أقدم تأليفا و تاريخا من النموذج الأول حيث يعود إلى عام ۱۹۸۳،أما المعجزه القرآنيه فقد صدر عام ۱۹۸۹،إنه كتاب«الإنسان فى الكون بين العلم و القرآن»للدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر...إن هذا الكتاب،و على الرغم من كثره المواضيع العلميه التى طرقها و شرحها و ناقشها و أشار إلى التوافقيه و اللقاء و اللمس بينها و بين آيات القرآن،لكنه يبقى كتاب هدايه و إرشاد للإيمان فى هدفه الأول و الأساس،حتى يصل المؤلف فى خلاصته إلى الدعوه إلى قيام علم إيمانى جديد و شامل يبنى على الأسس و الحقائق التى أودعها اللّه فى القانون الإلهى العام الأعظم للكون و الإنسان،و يصف هذا العلم بأنه«هو منقذ البشريه من ورطتها،و هو الذى يجدد صله الإنسان بالسماء»،كما يصفه بأنه (۳)«منهج تجريبى عملى يكشف للإنسان عن نظم الطبيعه و خواصها و أسرار النفس الإنسانيه،إنه لا يتحكم بأسلوبه الموضوعى فى عقائد الناس و لكنه يدعم إيمانهم باللّه و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر».و سنحاول أن نستعرض المنهج و الأحكام التى قررها هذا الكتاب،و الأسلوب المستخدم لتعامل القرآن مع العلم فيه.يقول فى مقدمه كتابه إنه سيقدم فيه«الدلائل الملموسه على شمول القرآن و صدقه و دقته فى معالجه الموضوعات التى تخص الإنسان و الكون»،و يبرهن على ذلك من خلال عرضه للعلوم المختلفه،ثم إشارته و برهنته على سبق القرآن للمس هذه المفاهيم.

إن المؤلف يستعرض الأفكار و النظريات و القوانين العلميه أولا،ثم يستعرض ما توافق منها مع القرآن أو لمسها القرآن لمسا أو التقى معها التقاء،و قد منهج الكتاب۴.

۱- الإنسان فى الكون بين العلم و القرآن-د.عبد العليم عبد الرحمن خضر،ص ۷۹.

۲- المصدر السابق،ص ۸۰.

۳- المصدر السابق،ص ۱۴.

على أساس منهجيه العلوم نفسها و أقسامها،فمثلا:بعد أن يبحث التطور البيولوجى للكائنات الحيه و يصل إلى بحث أطوار تكون الجنين،كما يقول العلم و كما يذكره القرآن،يقول:«و العلم يتوافق مع القرآن فى ذلك توافقيه تامه رائعه»،و أحيانا يستخدم الحديث النبوى بنفس المعنى،و فى فصل آخر بعد أن يبحث الكون و نظرياته المختلفه يقول (۱):«و وجدت أنه كتاب اللّه المنظور الذى لا يتعارض ما فيه من آيات فى الآفاق مع كتاب اللّه المقروء(القرآن الكريم)،و اكتشفت كيف مسّ القرآن الكريم توازن الكون الأعظم مسّا رقيقا فى إشارات كونيه غايه فى الدقه و الشمول و الصدق»،و لأن هدفه،كما قلنا،إيمانى إرشادى،فبعد أن يقرر الحقيقه القرآنيه و توافقها مع الحقيقه العلميه نراه يقول (۲):«و توصلت إلى التوافقيه بين القرآن و الفيزياء الكونيه فى تحديد خواص الدخان الكونى الأول،و وجدت خطوات البحث تقودنى منطقيا إلى اللّه خالق كل شىء و إليه المصير»،بل نراه يعقد فصلا كاملا لبحث(المفاهيم النهائيه التى يمكن الخروج من الحقائق القرآنيه و ما يخدمها من الآراء العلميه)..

إنه،إذن،يأخذ حقائق العلم التى تخدم حقائق القرآن،ليبرهن بعد ذلك على وحدانيه اللّه فى هذا الكتاب المعجز،إنه كتاب نموذج للتعبير عن العلاقه الأساسيه للعلم بالدين الإسلامى من خلال القرآن،فهو،إذن،على الطريق السوى الذى حدد شروطه التفسير العلمى للقرآن و ضوابطه لا- خارجا عنها،رغم أنه يستوعب كل مفردات العلوم،نظريات و قوانين و حقائق،و لكنه لا يفتأ أن يعود لارتباطها بالقرآن الكريم و هدايته و إرشاده و إعجازه.

فبعد أن يبحث الكون،نظريات و حقائق فى ضوء الفيزياء الكونيه يقرر أن توازن الكون من آيات اللّه فى الآفاق،فيصل إلى«أن هذا الكون المعجز ببنائه المذهل،فى اتساعه الرائع،فى حركته و اتزانه،هذا الاتزان الدقيق،لو اختل قيد شعره،منذ البدء، فى أيه جزيئه من جزئيات قوانينه،لا نفرط عقد هذا الكون و انهار كل ما فيه و من فيه».و بعد أن يستشهد بالآيات القرآنيه المعبره عن هذه الحقيقه،بعد كل هذا نراه يقول (۳):«لقد جاء العلم،و جاء العلماء بألف ألف دليل على صدق ما ورد فى القرآن الكريم،جاء بألف ألف دليل على وحده الكون و السماء و الأرض و الذره۱.

۱- الإنسان فى الكون بين العلم و القرآن-د.عبد العليم عبد الرحمن خضر،ص ۱۲.

۲- المصدر السابق،ص ۱۷.

۳- المصدر السابق،ص ۱۴۱.

و المجره فی قوانین وجودها و حرکاتها،و من هذه الوحده درج الناس و العلماء إلی وحده الکون»..و إنه هنا لأشبه بالفخر الرازی فی کتاب«أسرار التنزیل و أنوار التأویل»حینما تحدث عن معلومات عصره من مبدأ تکون السماوات و الأرض، و معنی الرتق،و معنی الفتق وصولا- إلی الاستدلال بصفات السماوات و أحوالها علی أن لهما مدبّرا و صانعا،فهو علی خطی سلیمه من الضوابط التفسیریه التی وضعها القدماء لتفسیر القرآن،إضافه إلی التزامه بالضوابط التی وضعها المعاصرون للتفسیر العلمی.

إن المؤلف یعتقد أن کل تقدّم بشری مقبل سیکون تقدما فی عقل الإنسان و ملکاته الإبداعیه،و لذا فهو یری أن (۱)«من إعجاز القرآن الکریم إشارته إلی نشأه علوم حدیثه لم یعرفها السابقون،و إنما لفت أنظارهم إلیها،کما وجه أبصارهم إلی دراسه الکون،و تأمل ظواهره و الإحاطه بآیات اللّه فیه،و قد حملت آیات القرآن بذور هذا التقدم العلمی و أرشدت إلیه و فکّت مغالیقه و ترکت للعقل البشری بعد ذلک استعمال رسالته حتی یتحقق من صواب نظریته أو خطئها»،إنه یعتقد بأن اللّه دعانا إلی الاستزاده من العلم فی قوله تعالی رَبِّ زِدْنِی عِلْماً [طه۱۱۴/]،لأنه سبحانه و تعالی یعلم أن علمنا لم ینته بما جاءت به الرسالات من معارف و توجیهات و إلا ما دعانا لهذه الاستزاده..

و إذا کان العلم الإنسانی یقوم علی الجواب علی کلمه کیف،فإن القرآن الکریم یدعونا دعوه واضحه،لا لبس فیها،إلی البحث فی الجواب عن هذه الکیفیه حیث یقول أَ فَلا یَنْظُرُونَ إِلَی الْإِبِلِ کَیْفَ خُلِقَتْ(۱۷) وَ إِلَی السَّماءِ کَیْفَ رُفِعَتْ(۱۸) وَ إِلَی الْجِبالِ کَیْفَ نُصِبَتْ(۱۹) وَ إِلَی الْأَرْضِ کَیْفَ سُطِحَتْ [الغاشیه۱۷/-۲۰]،فالجواب علی هذه الکیفیه هو مجال کل العلوم المعروفه لدینا الیوم و تبحثها کل العلوم بحثا دقیقا، و لکن لما ذا دعانا القرآن لذلک؟هل لکی نعرف العلوم و نقف عند قوانینها جامدین و نصفها وصفا لا یتجاوز البحث عما وراءها و من جعلها و من سبّبها و وضعها؟یقول المؤلف جوابا علی ذلک (۲)«و المتأمل فی القرآن الکریم یلاحظ أن القرآن الکریم یعرض الحقائق العلمیه فی صور مختلفه تنبئ بالحکمه و الموعظه الحسنه لکی تحقق الهدف الذی ذکرت من أجله،و هو هدایه الناس إلی بارئهم فی خشوع و إکبار لصفه خالق الأکوان ذی الجلال و الإکرام».۱.

۱- الإنسان فی الکون بین العلم و القرآن-د.عبد العلیم عبد الرحمن خضر،ص ۱۴۸.

۲- المصدر السابق،ص ۱۵۱.

إن المؤلف يبين علاقه الحقائق العلميه و الآيات القرآنيه باعتبارها علاقه توافقيه، أو عدم تعارض الواحده مع الأخرى من خلال القرآن نفسه،فهو دعا و يدعو إلى العلم فى كل آياته المتعلقه به،ففيه أكثر من سبعمائه و خمسين آيه،و هى أكثر من آيات الأحكام ذاتها،تعرض لمسائل علميه بعضها عام و بعضها مفصل،و أعطى القرآن لذوى العلم موقعا متميزا فى الدنيا و الدين،و فى معرفه اللّه،و مدحهم مدحا كبيرا حينما قال بأنهم هم الذين سيعرفون أن ما أنزل على محمد صلّى اللّه عليه و سلّم هو الحق وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَ يَهْدِى إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ [سبأ/۶]،فالعلم ليس خصما للإيمان،كما يقول بعض الملحدين،بل هو دليل إليه.

و يصل المؤلف إلى التأكيد على أن العلوم الطبيعيه و الفيزياء الكونيه هى علوم إسلاميه لأنها علوم قرآنيه فى موضوعها و فى طريقتها،و يستشهد بآيات كثيره مما جاء من ذكر العلم فى القرآن،و يشير أيضا إلى الدعوه لمعرفه طبيعه الشمس و القمر فى القرآن،كما قرر القرآن حقائق علميه كثيره تتعلق بالكون و الكائنات،بل إن القرآن دعا،كما يقول المؤلف،إلى البحث العلمى و طلب العلم،لأن المنهج العلمى كان وراء المعرفه الدقيقه للحقيقه الكونيه،و من ثم كانت هيمنه العلم على كثير من مظاهر حياتنا،و لما كان اللّه قد جعل الإنسان خليفه فى الأرض لذا طالبه بأن يكون عالما و عليما بسنن الكون التى ستقوده إلى أن يكون قادرا و أمينا على هذه الخلافه، و لعل دعوه القرآن للمخاطبين بما يعقلون خمسين مره،و بما يعلمون مائه مره،و بما يتفكرون و يتفقهون ثلاثين مره فى القرآن دليل واضح على هذا الاهتمام الاستثنائى للقرآن بالعلم.كل هذا كان هو الأساس الذى بنيت عليه«حقيقه عدم تعارض القرآن مع العلم على الإطلاق»،و لهذا فالمؤلف يؤكد أنه«ما تقدم العلم خطوه إلا و كشف عن ناحيه من نواحى الإعجاز العلمى فيه،و أضاف برهانا جديدا يؤكد أن القرآن كتاب اللّه الذى لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ [فصلت۴۲/].

هكذا،إذن،يبين المؤلف قناعاته ليدلل على الرابطه الوثيقه و الأكيده التى تحمل آيات القرآن إلى الحقائق العلميه،و مع هذا فنراه قلّما يستخدم كلمه إعجاز علمى إلا باستشهاداته عن الآخرين،و أحيانا كعباره عرضيه،و إنما أكثر ما يؤكد على كلمه التوافقيه بين القرآن و الحقيقه العلميه،اللهم إلا إذا فهمنا هذه التوافقيه عنده هى بمعنى الإعجاز العلمى الذى نستخدمه نحن.فحينما يعقد فصلا خاصا عن هذه

التوافقيه و تحت عنوانها و يؤكد فيها (۱)«إننى أشعر كلما قرأت القرآن الكريم-بعد أربعه عشر قرنا من نزوله-أنه يتنزل اليوم،فلم أجد فيه ما يناقض(حقيقه)أثبتها العلم الحديث،اللهمّ إلا إذا كانت هذه(الحقيقه)نفسها لا تزال أبعد ما تكون عن الحقيقه،أما الحقائق الثابته،فإنى أرى صداها فى القرآن الكريم»،و هذا ما يوجب عليه أن ينطق بكلمه معجزه علميه إلا أنه لا يفعل ذلك إلا من خلال استشهاده بنص لمؤلف اسم كتابه«معجزه القرآن»لنعمت صدقى،فيقول (۲):«و فى القرآن آيات أخرى اكتشفت معانيها على مر السنين،أو ما زالت تنتظر ما يجلى معانيها،و بذلك أثبت العلم الحديث أن القرآن معجزه كل العصور الغابره و القادمه،و العالم الذى يتضح له ذلك يقتنع بأن القرآن لم ينزل لتنفيذ تعاليمه فى زمن محدود بوقت نزوله، بل إنه الكتاب الذى يجب أن يظل(سائر المفعول)إلى آخر الزمان،و تعاليمه مناسبه لكل عصر،لأن علومه توافق كل عصر،و ما ذلك إلا لأنه من عند اللّه الذى خلق الإنسان و الذى يعلم أحواله و تطورها فى كل زمان،فأنزل ما يتضمن هدايته و مساعدته على الخلافه فى الأرض جيلا بعد جيل،و زمانا بعد زمان».

كما أن المؤلف حتى حينما يستخدم كلمه معجزه،و هى قليله جدا،فهو يضعها فى مقابل التوافقيه حيث يقول (۳)«فإذا اكتشف الإنسان بالعلم شيئا من تلك الحقائق الكونيه فى ذلك أيضا شىء من معجزات القرآن و معجزات الرسول الأمين محمد عليه الصلاه و السلام،و تحقيق ذلك على أيدى علماء الجغرافيه الفلكيه المعاصرين ليس فيه،إلا أنهم جاءوا ببعض ما جاء به القرآن قبل أربعه عشر قرنا.التوافقيه-فى هذه النقطه-موجوده قائمه».

إن التفسير الذى يمكن أن يقبل من المؤلف على ذلك ليس لعدم قناعته الأكيده بأن الآيه و الحقيقه تتعامدان تعامدا مؤكدا،و لا شك أو ظن قد يخطر فى البال من التخوف أن تتغير الحقيقه العلميه فنكون قد أخطأنا بفهم الآيه،و هذا يؤكده النفس الإيمانى العميق الذى يتكلم به المؤلف فى كافه مفرداته و تفاصيله.إن هذا الاستعمال لكلمه التوافقيه جاء كبيرا دقيقا و علميا فى مفهوم الكاتب للتعبير عن هذا الاتصال بين الآيه و الحقيقه العلميه،ذلك لأن القرآن،حين ذكر الحقائق الكونيه،لم يستخدم أسلوب البشر فى هذا الإثبات،بل استخدم أسلوب الإشاره و الرمز و المجاز و الاستعاره،و بعبارات توحى أو تومض بهذه الحقيقه،فأسلوبه أدق فى التشخيص۷.

۱- الإنسان فى الكون بين العلم و القرآن-د.عبد العليم عبد الرحمن خضر،ص ۱۷۱.

۲- المصدر السابق،ص ۱۷۳.

۳- المصدر السابق،ص ۱۷۷.

من استعمال عباره المعجزه باستخدام التوافق،يقول فی هذا (۱)«إن القرآن الكريم قد عرض كثيرا من الحقائق الكونيه،و لكنه عند ما يعرض أی قضيه من قضايا الكون العلميه لا يعرضها بأساليب البشر كاستعمال المقدمات-الدلائل،المعادلات- استنباط النتائج و إنما يقدمها بالإشاره أو الرمز أو المجاز أو الاستعاره أو بالعبارات التی تومض فی العقل بنور روحی باهر»،و هذا يعود إلی طبيعه الأسلوب القرآنی نفسه،و إلی أن هذه الحقائق سوف لا تدرک كامله فی عصرها و إنما ستأتی عصور لاحقه تتطور العلوم و المفاهيم خلالها فيستطيع الإنسان فهمها كما أراد اللّه لها،و إلا فما معنی أن ينزّل اللّه قوانين و حقائق لا يستوعبها أهل عصرها،و تكون عليه أشبه بالظلمات الغامضه،فاتجه الأسلوب القرآنی إلی الرمز و التشبيه و غيرها من الأساليب،و ربطها بالحكمه و الإرشاد و الهدايه لكی تؤدی غرضين فی وقت واحد، غرض يستفيد منه القدماء الذين نزلت الآيه فی وقتهم و ما بعدهم بقليل،و غرض يستفيد منه اللاحقون بعد تقدم العلوم و انكشاف الغطاء عن الحقائق الكونيه الجديده.فعظمه القرآن هنا تظهر فی مخاطبته لجهتين بنفس الأسلوب و المفردات، و لكن كل منهم يفهم معانی أعمق من الآخر،و لكن الهدايه واحده للاثنين و الإرشاد متساوی عند الطرفين،و فی ذلک يقول المؤلف (۲)«إن اللّه سبحانه و تعالی ينزل آيات،قد لا يدركها أو يفهم حقيقتها و أسرارها فی وقت نزولها كل المعاصرين لها، لأن العلم بقوانين الكون كان محدود الآفاق آنذاک،و لكن اللّه سبحانه و تعالی يعلم أن المستقبل سوف يأتی بفرص مناسبه لتوسيع مدلول الآيات الكريمه بما يخدم الإنسان و يرسخ حركته فی الكون و الحياه،و يحقق الخلافه فی الأرض لبنی الإنسان، قال تعالی سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِی الْآفاقِ وَ فِی أَنْفُسِهِمْ حَتّی يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ [فصلت/ ۵۳]،و لا شک أن هذه معجزه ما بعدها معجزه..».

ينتهی المؤلف بالدعوه إلی منهج إيمانی علمی معتمدا علی أن (۳)«المنهج الإيمانی للدراسات الجغرافيه فی القرآن و السنّه لا يجد غرابه و لا عجبا أن يأتی القرآن،و هو المعجزه الكبری،بتلک الموافقات و المطابقات لكل ما وصلت إليه العلوم الحديثه من نتائج،و وصل إليها العلماء بعد مئات السنين من الدراسه و البحث و التأمل،لأن العلم و الدين فی الإسلام شیء واحد،فالعلم يصل بک إلی الدين، و الدين يصل بک إلی العلم،و المنهج الإيمانی قبل كل شیء يؤكد بطريقه علميه أن۷.

۱- الإنسان فی الكون بين العلم و القرآن-د.عبد العليم عبد الرحمن خضر،ص ۲۲۲.

۲- المصدر السابق،ص ۲۲۲.

۳- المصدر السابق،ص ۲۶۷.

اللّه هو خالق الكون،و هو المهيمن على قوانين الحركه فيه بإرادته،و هو فى كل ذلك رحمن رحيم،و تجب عبادته و العمل بشريعته،و أنه سبحانه و تعالى نظم هذا الكون على أسس و قوانين و سنن غايه فى الحكمه و الشموليه و الدقه،يقول سبحانه و تعالى وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً [الفرقان۲/]».

و لو أخذنا مثلاـ تطبيقيا لمنهج الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر،فى التوافقيه بين آيات القرآن و مفردات العلم و اكتشافاته،لوجدنا مصداقا واقعيا لهذا النهج الدقيق،و سنحاول أن نقتطع فقرات من فصول مختلفه من كتابه لإيضاح و جهه النظر هذه.

ففى الفصل السادس،و الذى عنوانه(السنن الكونيه و قوانين الفطره بين البحث العلمى و القرآن)يبدأ فيه بفقره تحت عنوان(كيف يسير الكون)يقول فيه الدكتور:

نبّه القرآن الكريم إلى أن الكون كله يسوده نظام محكم وفق سنن إلهيه يسير الكون بمقتضاها،و قوانين لاـ تفاوت فيها و لا نقص،فيقول سبحانه عز من قائل:

اَلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَرى فِى خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ(۳) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ [الملک۳،۴]،و قد خلق اللّه كل شىء فى هذا الكون بقدر،أى بتقدير كمى و زمانى وفق ماهيه سابقه، و إن شئت قلت حدّده و أعطاه أو صافه حسب قوانين الفطره و سنن الكون الشامله، و جعل له رتبه وجوديه معينه.فمثلا وضع الخالق الأعظم كل موارد الثروه الاقتصاديه فى الأرض حسب سنن كونيه تحقق التوازن فى الأرض،قال تعالى وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها [فصلت۱۰/]،أى إن من سنن اللّه فى الكون أن يكون كل شىء فيه برتبه واحده،فمعنى قضى و قدّر:حكم و رتّب،و معنى القضاء و القدر حكم اللّه تعالى فى شىء ما أن يسير على سنه ما و لأجل ما،و الآيات الكريمه تدلّ على وجود سنن إلهيه دقيقه،و على أساسها تم تقدير المخلوقات تقديرا كميّا خاضعا للقياس و النظام الدقيق،و تتضح تلك المفاهيم فى قوله تعالى وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً [الفرقان۲/].و من تلك التقديرات الإلهيه التى تفلسف سنن الكون و قوانين الفطره تحديد مسار الشمس و حركتها و فلك القمر و مناطق منازله،يتضح ذلك فى قوله تعالى وَ الشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(۳۸) وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ [یس۳۸،۳۹]،و نحن بذلك نرجع بقوانين الكون و الفطره إلى أبسط قواعد الدين الفطرى الذى هو الإسلام و الذى من أصوله:أن لهذا الكون الباهر البديع غير المتنافر صانعا حكيما لا تدركه الأبصار،خلق كل شىء

فقدّره تقديرا،و قد رأينا أن منهج القرآن،فى تناول الظواهر الكونيه،هو الإشاره المجمله إلى بعض الظواهر،و ما أشبهها،ثم جاء العلم الحديث فكشف كثيرا من الأسرار التى أجمل القرآن الحديث عنها،و جميعها يدلّ على دقه السنن الإلهيه التى وصفها اللّه لتسيير هذه الظواهر فى الكون و الحياه.

و من ذلك مثلا قوله تعالى وَ اللّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ [فاطر۹/]،و منها نفهم أن الخالق الأعظم قد وضع لنزول المطر قوانين خاصه و جعل للرياح فيها دورا خاصا،بحمل السحب و إثاره الشحنات الكهربائيه المختلفه فتلاقحها ببعض،أو بذرات الغبار ليتكثف بخار الماء و لكنه لا ينزل إلا حسب القانون الإلهى الخاص بتوزيع المطر على الأرض،فتذهب السحب إلى البلد الميت (مناطق الجفاف)فيسقط المطر و تزدهر الحياه،و قد وضع الخالق الأعظم للكائنات نظاما خاصا فى المعيشه يسمى نظام المعيشه التعاونيه لتسهيل أسباب الحياه،قال تعالى وَ ما مِنْ دَابَّهٍ فِى الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ [الأنعام۳۸/].

و جاءت السنن الكونيه فى تصنيف الكائنات الحيه،حسب أنماط حياتها فى منتهى الدقه،فى ذلك يقول القرآن مشيرا إلى قانون شامل مؤداه أن كل المخلوقات الحيه خلقت أساسا من الماء وَ اللّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّهٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلى بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلى رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللّهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللّهَ عَلى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ [النور۴۵/].و قد وضع الخالق الأعظم قانونا ينطبق على كوكبنا الأرضى يختص بتوزيع الضياء و الظلام و علاقتهما بالحياه البشريه،و دور كل من الشمس و القمر فى ذلك،قال تعالى: فالِقُ الْإِصْباحِ وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [الأنعام۹۶/].و من أمثله السنن الكونيه العظيمه،التى توصل إليها العلم أخيرا،قانون استقرار الأرض و توازنها،و ما تبع ذلك من قوانين الفطره التى يخضع لها نظام الأرض لتكون صالحه للحياه،و لكن أكثر الناس لا يعلمون ما فى الأرض من سنن كونيه عظيمه،يقول سبحانه و تعالى: أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَ جَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَ جَعَلَ لَها رَواسِىَ وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً أَ إِلهٌ مَعَ اللّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ [النمل۶۱/].و تشير الآيه الكريمه إلى الاستقرار العام الذى تتسم به القشره الأرضيه حاليا،لأنها،قبل نشأه الحياه عليها،لم تكن مستقره فى عصورها الأولى قبل أن تبرد،و إذا كان استقرار الأرض لا يتصف بالشموليه المطلقه،على اعتبار وجود مناطق نشطه بالزلازل و البراكين بشكل متقطع،فإنما ذلك لإحداث التوازن للأرض من جهه،و من جهه أخرى لتنبيه البشر إلى قدره اللّه سبحانه و تعالى و أخذه

بناصیه الأرض و کل من علیها،شأنها فی ذلک شأن جمیع أجرام الکون.

کما تشیر الآیه الکریمه إلی قانون من قوانین الفطره التی تشملها سنن اللّه الکونیه، و هو قانون التوتر السطحی الذی یخضع له الماء،سواء العذب منه أو المالح،بحیث لا یختلط أحدهما بالآخر عند لقاء الأنهار بالبحار و المحیطات،و تتلخص تلک الظاهره فی عدم الاختلاط الفوری لمیاه البحر المالحه بالمیاه العذبه للأنهار الکبیره...کما نجد قانون الفطره الخاص بتولد الرعد و البرق فی السماء،یخضع الظاهره لما یسمی بالکهربائیه الکونیه التی تتولد من احتکاک السحاب،یقول سبحانه جلّ من قائل علیما هُوَ الَّذِی یُرِیکُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ یُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ [الرعد۱۲/]،و یقول سبحانه و تعالی: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ یُزْجِی سَحاباً ثُمَّ یُؤَلِّفُ بَیْنَهُ ثُمَّ یَجْعَلُهُ رُکاماً فَتَرَی الْوَدْقَ یَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَ یُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِیها مِنْ بَرَدٍ فَیُصِیبُ بِهِ مَنْ یَشاءُ وَ یَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ یَشاءُ یَکادُ سَنا بَرْقِهِ یَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ [النور۴۳/]،إنها سنن اللّه الکونیه التی أودعها فی هذا الکون الکبیر لیسیر کل شیء فیه وفق تخطیط مسبق و إراده إلهیه علیا منظمه،و انسجام کامل فی کل الموجودات.فکل شیء فی هذا الکون الفسیح من الذره و المجرات العملاقه یسیر وفق هندسه إلهیه و تقدیر محکم و نظام دقیق.فالذره المتناهیه فی الصغر عالم هائل فیه هندسه و حرکه و قوانین و طاقه،و کل شیء فیها یسیر وفق تقدیر مطلق الدقه».

و بعد أن ینتهی الدکتور عبد العلیم من حدیثه عن کیفیه سیر الکون و الدقه و التوازن الذی یحکمه،یأتی فی فصل آخر بعنوان(النسبیه فی قوانین الحرکه الکونیه بین المفهوم العلمی و منهج القرآن)،و فی فقره(قوانین الدینامیکا الحراریه و نهایه الکون)لیقول فیها«إن هذا الکون کانت له بدایه هی الدخان ثُمَّ اسْتَوی إِلَی السَّماءِ وَ هِیَ دُخانٌ [فصلت۱۱/]،و لم یکن أزلیا و لن یکون بصورته هذه أبدیا،فلا بد أن سیکون له یوم تکون فیه النهایه،لأن قوانین الدینامیکا الحراریه و الطاقه المتاحه یؤکدان أن الحراره تنتقل دائما من وجود حراری إلی وجود غیر حراری،و باستمرار هذا العملیه لا بد أن یأتی وقت تتساوی فیه حراره جمیع الموجودات فتنتهی کل العملیات الکیمیائیه و الطبیعیه،و بانتهائها تنتهی الحیاه تلقائیا علی أرضنا و ما یشبهها من کواکب الأکوان البعیده.و هذا الکون العظیم المعجزه فی بنائه،المذهل فی اتساعه،الرائع فی حرکته و اتزانه،هذا الاتزان الدقیق الذی لو اختل شعره،فی أمر من أموره،لا نفرط عقد هذا الکون و انهار کل ما فیه و من فیه،و لمّا کان هذا الکون منذ ملایین السنین یسیر علی نفس السنن فإن الذی یصونه مما قد یتعرّض له من کوارث هو اللّه،هو اللّه

الـذی لو رفع عنا حمایته برهه من زمن لهلکنا و هلک کل من معنا،هو اللّه الـذی جعل أرضـنا فی هذا الموقع الممتاز الذی یقدر بعده بحوالی ۹۳ ملیون میل من الشـمس، و لو کان قد جعلها ضـعف بعدها الحالی من الشمس لنقصت کمیه الحراره التی تصلنا إلی ربع کمیتها الحالیه،أی إن الحیاه کانت تقتصـر علی شـریط ضـیق فقط حول خط الاسـتواء الذی تصـیر درجه حراره المناطق المحیطه به حـوالی ۱۲ م فقـط طول العـام،و تهلـک الحیـاه فوق باقی أجزاء الکوکب...هـذا طبعا إذا لم نأخـذ فی الاعتبار مسائل أخری.

إن مجرد ابتعاد الأرض عن الشـمس بحوالی ۱۸۶ ملیون میـل فقط أمر یجعل الأرض تقطع دورتها حول الشـمس فی وقت أطول مما یترتب علیه طول فتره الشـتاء إلی ما یزید عن زمن یساوی السنه التی نعرفها الآن،و هی ظروف یستحیل معها بقاء صور الحیاه فـوق الکـوکب،و هو اللّه الـذی جعـل أرضـنا فی هـذا الموقع الممتـاز الـذی لو کـان أقـل من ذلـک،النصف مثلا[(۵،۴۶)ملیون میل]،لصارت سـرعه الأرض أعظم و حرارتها أشـد،حتی تتبخر المیاه فی نخاع جمیع الکائنات فوقها،و لانـدلعت الحرائق فی کل شبر منهـا،و لأصـبحت مثـل الکوکب عطـارد تمامـا،و هو اللّه الـذی جعـل أرضـنا فی مثل هـذا الحجم المثالی،و لو کان قـد أراد لأرضـنا غیر ذلک-حسب مشیئته تعالی-کأن تکون فی مثل ۱/۴ حجمها الحالی لما أمکن أن تحتفظ بغلافها الجوی الـذی لولاه لانعـدمت الحیـاه بسـبب غیـاب عنصـر الأوکسـجین،و تنعـدم النباتـات لانعـدام المیـاه،و ینعـدم ظهور الشـفق قبـل الغروب و بعد الغروب،و یهجم الظلام علی ضوء النهار فجأه،کما یطلع النهار و یتبدد الظلام فجأه،و یصبح الفرق فی درجه حراره سطح الأرض لیلا و نهارا فرقا کبیرا قد یبلغ مئات الدرجات، و تصـبح الأرض معرضه لمزید من الأشعه الکونیه القاتله لکل شیء فی طریقها، و یصـبح انتقال الصوت من مکان لآخر صعبا،و تنعدم السحب،و تختفی الأمطار، و تجف الأنهار،و تسودّ صفحه السماء بعد زرقه،و تظهر النجوم نهـارا کظهورهـا لیلا و کـل ذلـک یـذکرنا بهول یوم القیامه حیث یقول سـبحانه و تعالی کُلُّ مَنْ عَلَیْها فانٍ(۲۶) وَ یَبْقی وَجْـهُ رَبِّکَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِکْرامِ(۲۷) فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ [الرحمن۲۶/-۲۸]،و لا یملـک التعبیر البشـری أن یصور الموقف،و لا یملک أن یزیـد شـیئا علی النص القرآنی الـذی یسـکب فی الجوانـح السـکون الخاشع و الجلال الغامر و الصـمت الرهیب، الصـمت الـذی یرسم مشـهد الفنـاء الخـاوی،و سـکون الموت بلا حرکه فی جنبات الکون الـذی کان حافلا بالحرکه و الحیـاه،کـل شـیء سـیتغیر یَوْمَ تُبَـدَّلُ الْأَرْضُ غَیْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ [إبراهیم۴۸/]،و نحن لا ندری کیف سـیتم هـذا و لا طبیعه الأرض الجدیـده و طبیعه السـماوات،و لا مکانها و لکن النص یلقی الظلال،ظلال القدره التی تبدل الأرض و تبدل السـماوات،و تبعث الارتجـاج و الهلـع فی الأـرض کمـا یقـول سـبحانه یَـوْمَ تَرْجُـفُ الْـأَرْضُ وَ الْجِبـالُ وَ کـانَتِ الْجِبـالُ کَثِیبـاً مَهِیلًا [المزمل۱۴/]،القـدره التی تجعـل السـماء تنفطر و الکواکب تنتثر و البحـار تفجر و القبور تبعثر،القـدره التی تجعل الجبال تسیر و الأرض تمیـد وَ یَوْمَ نُسَـیِّرُ الْجِبالَ وَ تَرَی الْأَرْضَ بارِزَهً [الکهف۴۷/]. وَ إِذَا الْجِبالُ سُـیِّرَتْ [التکویر۳/].کل ذلک آیات علی قدره الخالق جل و علا،فتبارک اللّه أحسن الخالقین...و إلیه ترجعون».

إن مجرد ابتعاد الأرض عن الشمس بحوالى ١٨٦ مليون ميل فقط أمر يجعل الأرض تقطع دورتها حول الشمس فى وقت أطول مما يترتب عليه طول فتره الشتاء إلى ما يزيد عن زمن يساوى السنه التى نعرفها الآن،و هى ظروف يستحيل معها بقاء صور الحياه فوق الكوكب،و هو اللّه الذى جعل أرضنا فى هذا الموقع الممتاز الذى لو كان أقل من ذلك،النصف مثلا-[(٥،٤٦)مليون ميل]،لصارت سرعه الأرض أعظم و حرارتها أشد،حتى تتبخر المياه فى نخاع جميع الكائنات فوقها،و لاندلعت الحرائق فى كل شبر منها،و لأصبحت مثل الكوكب عطارد تماما،و هو اللّه الذى جعل أرضنا فى مثل هذا الحجم المثالى،و لو كان قد أراد لأرضنا غير ذلك-حسب مشيئته تعالى-كأن تكون فى مثل ١/٤ حجمها الحالى لما أمكن أن تحتفظ بغلافها الجوى الذى لولاه لانعدمت الحياه بسبب غياب عنصر الأوكسجين،و تنعدم النباتات لانعدام المياه،و ينعدم ظهور الشفق قبل الغروب و بعد الغروب،و يهجم الظلام على ضوء النهار فجأه،كما يطلع النهار و يتبدد الظلام فجأه،و يصبح الفرق فى درجه حراره سطح الأرض ليلا و نهارا فرقا كبيرا قد يبلغ مئات الدرجات، و تصبح الأرض معرضه لمزيد من الأشعه الكونيه القاتله لكل شىء فى طريقها، و يصبح انتقال الصوت من مكان لآخر صعبا،و تنعدم السحب،و تختفى الأمطار، و تجف الأنهار،و تسودّ صفحه السماء بعد زرقه،و تظهر النجوم نهارا كظهورها ليلا، و كل ذلك يذكرنا بهول يوم القيامه حيث يقول سبحانه و تعالى كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ(٢٦) وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ(٢٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ [الرحمن٢٦/-٢٨]،و لا يملك التعبير البشرى أن يصور الموقف،و لا يملك أن يزيد شيئا على النص القرآنى الذى يسكب فى الجوانح السكون الخاشع و الجلال الغامر و الصمت الرهيب، الصمت الذى يرسم مشهد الفناء الخاوى،و سكون الموت بلا حركه فى جنبات الكون الذى كان حافلا بالحركه و الحياه،كل شىء سيتغير يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ [إبراهيم٤٨/]،و نحن لا ندرى كيف سيتم هذا و لا طبيعه الأرض الجديده و طبيعه السماوات،و لا مكانها و لكن النص يلقى الظلال،ظلال القدره التى تبدل الأرض و تبدل السماوات،و تبعث الارتجاج و الهلع فى الأرض كما يقول سبحانه يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ وَ كانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلاً [المزمل١٤/]،القدره التى تجعل السماء تنفطر و الكواكب تنتثر و البحار تفجر و القبور تبعثر،القدره التى تجعل الجبال تسير و الأرض تميد وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَ تَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً [الكهف٤٧/]. وَ إِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ [التكوير٣/].كل ذلك آيات على قدره الخالق جل و علا،فتبارك اللّه أحسن الخالقين...و إليه ترجعون».

و فى فقره ثانيه من نفس الفصل،و تحت عنوان(هل تشتعل البحار)?يقول الدكتور عبد العليم مفسرا آيه وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ [التكوير٦/]«إن تفجير البحار يحتمل أن يكون هو امتلاؤها و غمرها لليابسه و طغيانها على الأنهار،كما يحتمل أن يكون هو تفجير مائها إلى عنصريه الأوكسجين و الهيدروجين،فتتحول مياهها إلى هذين الغازين كما كانت قبل أن يأذن اللّه بتجميعهما،و تكوين البحار منهما،كذلك يحتمل أن يكون هو تفجير ذرات هذين الغازين،كما يقع فى تفجير القنابل الذريه و الهيدروجينيه اليوم،و قد أمكن اليوم فصل ذره الأوكسجين عن ذرتى الهيدروجين التى يتكون من ثلاثتها الماء،و علوم البحار توصلت الآن إلى أنه يقع فى أعماق المحيطات السحيقه هيدروجين طليق يتكون من ذرات ثقيله،و من الممكن تحطيم إحدى هذه الذرات بفعل ضغط كهربى من صاعقه مثلا،أو بفعل حراره هائله تندلع بصوره مفاجأه من باطن الأرض الملتهب عبر شق يحدثه انكسار فى صخور القاع الناريه،و من المعروف أن ذره الهيدروجين تشتمل على نواه تتكون من بروتون واحد (لا يوجد هنا نيوترونات)،و يدور حولها إلكترون،و يقع هذا المدار فى مستوى الطاقه الأولى أو فى السماء الأولى الأقرب إلى النواه،و الوزن الذرى للهيدروجين ١،٠٠٨ و العدد الذرى ٠١،و حين يبدأ اشتعال الهيدروجين الموجود فى الماء عند قيعان المحيطات،من جراء زلزال كبير أو بركان عظيم،تنطلق منه كميات هائله من الطاقه الإشعاعيه،و لن تكون من النوع الذى نراه فى موقد أو فى كوم من

ما أشارت إليه الآيه الكريمه التى سبقت عصر العلم بألف و أربعمائه سنه،و التى تقول وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ [التكوير۶/].

و بذلك يثبت العلم أن ما جاء بالآيه الشريفه هى الحقائق التى وصل إليها العلماء فقط عند ما حان أمر اللّه بالسماح للإنسان أن يكشف شيئا من ستار المجهول تحقيقا

ص: ۷۲

لوعده سبحانه و تعالى: سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ [فصلت۵۳/]،و بعض المفسرين يرى فى معنى قوله تعالى: وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ أى غاض ماؤها،و ملئت بالنار بدل الماء،و لا غرابه،فباطن الأرض شديد الحراره جدا بدليل البراكين التى تخرج منه، و ليس ببعيد عند ما تأتى النهايه أن تتشقق الأرض و يغيض الماء لتبخره فى الجو بردا، و يمتلئ البحر بالنار التى تخرج من باطن الأرض».

أما النموذج الثالث لتفسير القرآن تفسيرا علميا فإنه مع تصورات الأقدمين،التى ذكرناها،من أن القرآن فيه كل علم و كل معرفه حتى عدّوا العلوم بسبعين ألف علم و أكثر،و ما ذكره ابن مسعود أن فيه علم الأولين و الآخرين،و ما ذكره الغزالى عن أن تحت كل كلمه من كلمات القرآن علم،لأن القرآن يتحدث عن صفات اللّه و أفعاله، و الكون هو من خلق اللّه و أفعاله،و ما ذكره ابن مجاهد أنه ما من شىء فى العالم إلا و هو فى كتاب اللّه،و ما قاله ابن أبى الفضل المرسى من أن القرآن جمع علوم الأولين و الآخرين،بل و يستشهد السيوطى لأبى البكر بن عربى من أن القرآن فيه علوم على عدد كلمات القرآن مضروبه فى أربعه،لأن لكل كلمه ظهر و بطن و حد و مطلع،عدا ترتيبها و الروابط بينها،و هذا مما لا يحصى و لا يعلمه إلا اللّه،بل و يعتبر بعض القدماء أن حدود علم اللّه لا نهايه لها،مستشهدين بقوله تعالى فى القرآن وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَهُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ [لقمان۲۷/] قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّى وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً [الكهف۱۰۹/]و آخر من قال به،بهذا المعنى،الفخر الرازى الذى قال (۱):«ما من حرف و لا حركه فى القرآن إلا و فيه فائده،ثم إن العقول البشريه تدرك بعضها و لا تصل أكثرها و ما أوتى البشر من العلم إلا قليلا».

يلتقى هذا النموذج الثالث مع جميع هذه الأوصاف للقرآن و يحاول البرهنه عليها بكتاب كامل اسمه(القرآن تفسير الكون و الحياه)للأستاذ محمد العفيفى،أى أن هذا الكتاب يحقق و يؤمن بأن القرآن فيه تفسير كل شىء،و فيه الحقيقه المطلقه،و فيه الثبات الحقيقى فى الحياه،و هو التطابق بين كلمات القرآن و بين تغيرات الحياه و مكتشفات العلم،و يعتبر أن القرآن يقول الفصل فى كل شىء لأن فيه علم كل شىء،و يؤكد على أن فى العالم كتابا واحدا قدم للناس جميعا حقائق العلم قبل أن تثبت فى معارك العلاقات بين الوعى البشرى و بين ماده الكون،و يقول بأن القرآن،۲.

۱- الإنسان فى الكون بين العلم و القرآن-د.عبد العليم عبد الرحمن خضر،ص ۲۲۲.

بصفته كلام اللّه تعالى،هو اليقين الوحيد فى عالمنا الذى تختلف مادته و لا تتفق بغير قدره اللّه،و يرى بأن الحق هو ظهير الكلمه،فإن عبدنا الحق صدقت كلماتنا،و إن أخضعنا كلماتنا لكلمات اللّه فزنا بالعلم كله،بل إنه يصر على أن القرآن،حقا،هو تفسير الحياه،و لا يمكن أن يكون للحياه تفسير غير القرآن،و يقصد بالحياه الكون و الوجود كله،و يشير بتعبير آخر إلى أن القرآن هو التفسير لليقين الوحيد المطلق لكل شىء فى الحياه فى شمولها و تفصيلها،و أن سائر علوم الحياه و سائر بحوثنا فى صحيح الماده إنما هو أمر سبقنا القرآن إلى بيانه،و دعانا إلى معرفته،و أن علماء العالم لو اجتمعوا كلهم على الآيات القرآنيه الكونيه لاكتشفوا سبق القرآن للوعى البشرى إلى اكتشاف كل الحقائق،ثم يفسر قوله بأن العلم الذى أنزله اللّه تعالى على رسوله فى القرآن هو علم الصله بين كل شىء و كل شىء من طريق تفصيل الحياه بالخلق و تفصيل القرآن بالأمر.

و هكذا ينتهى إلى القول بأن صله الوعى البشرى بالحياه كلها احتمالات و تغيرات و مفاجآت و انقطاع عن العلم الحقيقى،و لو لا القرآن،الذى أعان الوعى البشرى على اكتشاف العلوم،لبقى الإنسان فى حيره من أمره.ثم يختم تصوراته بأن الإيمان هو أعلى درجات العلم،و أنه لا علم البته إلا و هو الإيمان،لأن عمل الإنسان إذا انقطع إلى نفسه فهو احتمالات فى احتمالات فى حين أن اليقين و الثبات لا يكونا إلا بارتباط هذا العمل بالحقيقه،و الحقيقه هى فى كلام اللّه (۱)«إن العمل الإنسانى متحقق حقه فى البقاء إن كان عملا إنسانيا صالحا،و اللّه هو الذى يحقه،فبقاؤه إنما يتم بإحقاق اللّه له»،و يقول:لا وجود و لا عمل-للإنسان-بغير خلق اللّه للإنسان و لماده الحياه،ثم يعمل الإنسان عملا احتماليا لا يتحقق إلا بالحق،و الحق هو اللّه، و الحق يهدى إلى الحق،أى أن التزام الحق فى العمل يحقق احتماليته،فيجعلها متحققه بالحق أو باطله بإبطال الحق لها،فالاحتمال فى حدود عمل الإنسان و اليقين هو خلق اللّه وَ اللّهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ [الصافات۹۶/]،و يصل إلى إثبات أن القيمه الحقيقيه هى عباده كل شىء للّه،و أن القرآن هو التفسير الحقيقى لكل أحوال الحياه لأن القرآن مفصل تفصيلا مطلقا بينما الحياه مختلفه.

إذن،فهذا النموذج فى التفسير للقرآن يعطى كل كلمات المبالغه عن القرآن حقيقتها فى القرن العشرين،بعد أن أعطاها القدماء حقيقتها حينما جعلوا كل العلوم تصب و تنبع۷.

۱- القرآن تفسير الكون و الحياه-محمّد العفيفى،ص ۹۷.

من القرآن مهما كانت بعيده،و لكن الملاحظه الذكيه الأولى التى يبدأ بها المؤلف كتابه، و هو يحتاط لتعليمات كلماته كى لا يساء فهمها،هى تأكيده فى أول عباره من كتابه على توضيح ضرورى جدا لفهم أفكاره فهما سليما حيث يقول (۱)«من حقيقه القرآن أن فيه تفصيل كل شىء...و أول ما يتعثر فيه الوعى البشرى،و هو يحاول فهم أن القرآن فيه تفصيل كل شىء،أن يظن أن القرآن فيه تفصيل ماده الحياه بذاتها...حتى لقد ظن بعض الناس أن القرآن فيه ذكر أجزاء الماده،أو تفصيلات المعادلات الرياضيه أو الكيميائيه،إلى غير ذلك من تفصيلات الوقائع الماديه ذاتها...و ليس فى ذلك شىء من الصواب،و أن القرآن لهو أعظم و أعلى قدرا من أن يكون ضمن محتويات الحياه الماديه.إن القرآن كلام اللّه،فهو،كما سنرى،فوق الحياه و ليس ضمن محتوياتها، القرآن فيه تفصيل كل شىء،حيث هو مهيمن على تفصيلات الماده بتفصيلات الحقيقه المحيطه بسائر علاقات الأشياء بعضها ببعض،فالخلق،أى أجزاء الأحياء و الأشياء فى رحاب الكون،لا بد له من علاقه بالخلق،و الإنسان،و هو يبحث فى حقائق الكتل الماديه،لا بد له من حساب فى علاقته هو نفسه بهذه الكتل الماديه، الإنسان و مرائيه و مشاهداته بحاجه إلى علاقه ثالثه،إلى ضلع ثالث،يكمل مثلث الإنسان و الأشياء بضلعهما الثالث و هو الأخلاق أو مراقبه المجتمع الإنسانى له»، علما أن الأخلاق عنده ليست بالمعنى المباشر المعروف و إنما هو يبنيها على أساس نوع السلوك الإنسانى تجاه علاقه الإنسان بالأشياء بعد إدراكها له بشكل معين، فيقول (۲)«إذا كانت الماده تتحول إلى طاقه،و الطاقه تتحوّل إلى ماده،و كما هى حقيقه حياتنا التى نحياها،فإن سائر المنتجات الماديه تتحول إلى أخلاق،أى إلى لحظه التصرّف فى المنتجات،و قد يكون التصرّف أمينا صادقا يعطى كل ذى حق حقه،و قد يحدث عكس ذلك تماما،و على ذلك،فالعالم كله بحاجه إلى هذا الاكتشاف الضخم فى كلمات القرآن لأنها تحقق ذلك كله،و تعطى كل مرحله منه حقها الواضح الذى يربط بين الماده و الأخلاق ربطا عضويا لا شك فيه،كما حدد القرآن لكل كلمه من كلماته قيمه يقينيه هى أعز من حقائق العلم التطبيقيه نفسها».

فكيف بنى هذا المؤلف منهجه فى الكتاب؟و ما هى الأسس التى اعتمد عليها فى إثبات هذه الفروض التى طرحها فيه؟و من ثم حكمه على الإعجاز العلمى للقرآن، و ما هى المساحه التى أعطاها له؟.

۱- القرآن تفسير الكون و الحياه-محمّد العفيفى،ص ۷.

۲- المصدر السابق،ص ۵۰.

يبـدأ المؤلف تحديـد منهجه فى الكتاب فى الفصل الأول،الذى أعطاه عنوان (و تفصـيل كل شـىء)،منطلقا من أن حقيقه القرآن أن فيه تفصـيل كـل شـىء،لاـ بمعنى تفصـيلات المـاده و جزئياتهـا و معادلاتهـا و كيميائيتهـا و إنمـا بمعنى أن كلاـم اللّه الشامل المهيمن على تفصـيلات الماده بتفصـيلات الحقيقه المحيطه بسائر علاقات الأشـياء بعضـها ببعض،أى أن الحقائق الفكريه الشامله فى القرآن تحكم الوقـائع المـاديه الكـثيره فى الحيـاه،و الحقيقه القرآن ثـابته لاـ تتغير،فى حين أن وقـائع الحيـاه المـاديه تحكمها التغيرات و التضـاد و الاتصـال،لـذا فـإن الحقيقه القرآنيه هى فوق الوقـائع المـاديه و تحكم حركتهـا و تغيرهـا و تضادها بمقولتها الفكريه،و لهـذا فهى فوق الحياه، و تهيمن على تفاصـيلها،و لو كانت ضـمن الحياه لشـملتها صـفه الحياه التى هى التغير -كما هو الحال مع كلام البشـر-الذى يتغير مع الحياه ليلا حق ظواهرها و لأنه منها و ضمنها،و يدلّ على هذا أن الحقيقه المطلقه الثابته التى لا تتغير هى كلمات القرآن وحـده،فى حين جميع حقائق البشـر المكتشـفه هى نسبيه و احتماليه و قـد تتغير مع كل جديـد و علم جديد.

إن كلمه«و تفصـيل كـل شـىء»القرآنيه يفهمها المؤلف فهما شاملا،فهى بمعنى أن الحياه لمّا كانت مفصّـلة فى مفرداتها تفصـيلا دقيقا و فى كل مفرداتها،لذا فإن كلمات القرآن المعبره عن هذه التفصـيلات المتكاثره بتفصـيل يطابقها مطابقه الحقيقه للواقع، و يعتبر أن التفصـيل القرآنى هو معجزه لكلمات القرآن و آياته جميعا،و أى كلمه قرآنيه وردت مره واحده فيجب أن يكون واقعها المـادى واحـدا أيضـا،و إذا وردت أكثر من مره كـان واقعهـا معهـا يتنـاسب و يتناظر مع العلاقه بين الكلمه و علاقاتها فى الجمله الكلاميه،و تشابک علاقات الواقعه أو المعنى المادى المشيره إليه فى واقع الحياه و تشابكاتها.

و لذا يصف الكاتب هذا التفصـيل المعجزه بقوله بأنه (۱)«تفصيل مطلق شامل، يتّصل بكلمات القرآن جميعا،كما يتصل بمواضع الخضوع لها فى وقائع الحياه، سواء كانت وقائع فكريه أو عمليه فى المجتمع الإنسانى،أو فى رحاب الكون المادى نفسه»..

إن كلمه«تفصـيل»وردت فى القرآن مرتين،كمـا يقول المؤلف،وردت فى سوره الأـعراف فى قوله تعـالى وَ لَقَـدْ جِئْنـاهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ۶.

۱- القرآن تفسير الكون و الحياه-محمّد العفيفى،ص ۱۶.

يُؤْمِنُونَ [الأعراف۵۲/]،و وردت فی سوره الإسراء بقوله تعالی وَ یَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَیْرِ وَ کانَ الْإِنْسانُ عَجُولاً(۱۱) وَ جَعَلْنَا اللَّیْلَ وَ النَّهارَ آیَتَیْنِ فَمَحَوْنا آیَهَ اللَّیْلِ وَ جَعَلْنا آیَهَ النَّهارِ مُبْصِرَهً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّکُمْ وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِینَ وَ الْحِسابَ وَ کُلَّ شَیْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِیلاً [الإسراء۱۱،۱۲/]،و یقول المؤلف معلقا (۱):«سنحاول أن نربط بین التفصیلین:تفصیل القرآن،و هیمنه تفصیله علی تفصیل کل شیء،من ظواهر العلاقات بین الوعی البشری و بین المسیره الکونیه،بلیلها و نهارها و ما یتبع ذلک من عدد السنین و الحساب،أی أبعاد التاریخ و سائر معادلات الریاضه و العلم و الأخلاق».و أول شیء نواجهه فی عصرنا،عصر العقول الألکترونیه،إن التفصیل فیه یقوم علی تفصیل مقادیر معینه أو إحصاءات محدّده لتقییم الاحتیاجات وفق خطه مقرره أو خطه للمستقبل القریب أو البعید،و لکن هذه الخطه أو تلک-کما یقول- لا یمکن أن تکون یقینیه فی حکمها لوقائع الحیاه،حیث التغیرات المجهوله تواجه التخطیط بما لم یکن بالحسبان«أما القرآن فهو مفصّل الکلمات تفصیلا مطلقا یحکم أحوال الحیاه کلها جمله و تفصیلا،حکما مطلقا مهما تختلف أحوال الحیاه»،و هو یقصد بالتفصیل المطلق لکلمات القرآن«أن کل کلمه من کلمات القرآن،و هی تتعدد مواقعها فی آیاتها،فهی مفصله تفصیلا مطلقا،إذ هی ثابته فی بنائها القولی،ثابته فی حقیقتها المرتبطه بها وحدها».

و هو یری (۲)«إن لکل موقع قرآنی،بکل کلمه قرآنیه،حقیقه خاصه به فی موقع الکلمه منه حقیقه لا تتکرر إطلاقا،فی أی موقع آخر جاءت به الکلمه نفسها،علی أن التطابق القرآنی بین کلماته و واقعها المادی لا یأتی وصفا عدیدیا و موقعیا فحسب، و لکنها فی القرآن حکما و أحکاما،و فی الحیاه کلها خضوعا لحکم کتاب اللّه و تفصیلا لأحوال الحیاه،و هی تهتدی بنور کلمات اللّه»أی أن القرآن یحکم الحیاه بکلماته و لا یصفها فقط.

إن الحیاه تتکاثر تکاثرا کمیا لتلبیه حاجاتها،کما فطرها اللّه،و أن اختلاف الأعمال و اختلاف الأشیاء علامات للوعی البشری حتی یدرک عظمه خالقه الذی جعل من المختلفات متفقات علی غیر قدره من المختلفات أن تکون علی العکس منها تماما متفقات،و لو کانت کلمات القرآن ککلمات البشر لاحتاجت فی وصفها لهذه الاختلافات أن تتنوّع و تختلف و تتعدد،و بذلک تفقد صفه الثبات و الیقین،أما کلمات۲.

۱- القرآن تفسیر الکون و الحیاه-محمّد العفیفی،ص ۲۰.

۲- المصدر السابق،ص ۲۲.

القرآن فتفصیلها یعنی ثباتها،و کل ثبات هو یقین،أی وصول إلی حل ثابت و نهائی لکل معضله.فالقرآن ثابت الکلمات مثبت لسائر الأحوال المختلفه فی الحیاه بکلماته الثابته،و هی ثابته لأنها لا تتکرر،و هی لا تتکرر لأنها مفصّله تفصیلا مطلقا (۱)«فمهما تتغیر الحیاه و مهما یکتشف الناس من العلوم،فالقرآن یحکم حکما ماديا أخلاقیا-ما- علی کل شیء بهذا التفصیل المعجز الذی حققه اللّه لکلماته،و هو تصنیف مطلق الدّقه و الإصابه»،و یصف المؤلف هذا الثبات بقوله (۲):«و الثبات الصحیح فی الحیاه هو التطابق بین کلمات القرآن،و بین تغیرات الحیاه و مکتشفات العلم»،فلیس عجیبا بعد ذلک أن یکون القرآن سابقا بما کشف عنه من العلم قبل اکتشافنا للکثیر منه،و قبل ما نعلم فی المستقبل،فندرک أن القرآن سابق بالحق أبدا،و یعتقد المؤلف أن«هذه هی معجزه التکوین الفذ المعجز لعلاقات الکلمات القرآنیه فیما بینها و أحکام هذه الکلمات القرآنیه فی حکمها للوقائع التی تکوّن الحیاه فی جملتها و تفصیلها»، و یفترض المؤلف،دلاله علی إعجاز القرآن،أنه لو حاول أی مؤلف لکتاب أن یؤلف کتابا فیه إحصاء لعدد الکلمات التی یتکون منها فلا بد أن تکون کل کلمه ترد فیه إما مره واحده أو أکثر،و لن یجری أحد إحصاء مثل هذا لأن العلم الذی فیه علم احتمالی و یحتمل الخطأ،و حتی و لو کانت فیه حقائق العلوم المعروفه فإنها قد تتطور و تتغیر، و بالتالی فإن أی إحصاء أو تبویب من هذا النوع إنما هو شیء لا یجرؤ علیه أحد،لأنّ المقصود من هذا الإحصاء هو التعبیر عن مقولات فکریه عملیه حقیقیه لکل ماده لغویه یعبر عنها لفظ من الألفاظ،و فی علاقاتها مع غیرها،ثم إنها تدل علی واقع الحیاه المقابل لهذه المقوله،أما السبب فلأن مثل هذا الکتاب سیکون جزءا من الحیاه هی حقیقتها،أما الألفاظ و المقولات التی لا تجد رصیدها فی الواقع فهی من الأوهام، لأن أی کلمه حقیقیه تعنی التطابق بین أی شیء فی الحیاه و أی شیء آخر علی نحو یتیح شیئا صحیحا ینفع الحیاه و الأحیاء،و هکذا یصل المؤلف إلی القول:«إن الناس جمیعا لا یمکنهم أن یؤلّفوا کتابا من أی نوع تنطبق علیه هذه الشروط القاسیه أو کل الشروط المستحیله»،و یبرّر ذلک بقوله:«لأن صله و عینا بالحیاه کلها،صله احتمالات و تغیرات و مفاجآت و انقطاع عن العلم الحقیقی».

و هکذا یصل المؤلف إلی القول بأنه (۳)«فی العالم کله کتاب واحد،قدم للناس جمیعا حقائق العلم،قبل أن تثبت فی معارک العلاقات بین الوعی البشری و بین ماده».

۱- القرآن تفسیر الکون و الحیاه-محمّد العفیفی،ص ۲۵.

۲- المصدر السابق،ص ۲۸.

۳- المصدر السابق،ص ۳۹-۴۰.

الكون،ذلكم هو القرآن»،و لذا (۱)«فإن عقلاء العالم كله ليعجبون كيف يكون فى عالم الناس(القرآن)و لا يجعلونه قبلتهم جميعا لفهم الحياه و تفسيرها،و معرفه الحقيقه و العمل بها».

إن الكتاب الذى يحق له أن يحكم العالم،لا بد أن يتّصف بأنه ليس بحاجه إلى تعديل أو إضافه لأن أحكامه يقينيه،بمعنى أن كل علاقه يعقدها بينه و بين الحياه،لا بد أن تكون علاقه تخضع كل تجارب الناس،و كل علاقاتهم بالحياه للفوز المبين المعقود على نواصى كلماته،فما بالنا إذا ثبت،بالدليل القاطع،مع ذلك كله أن كلمات القرآن حقائق ثابته لها وقائعها فى الحياه كلها فيما يتعلق بالنصوص التى تدور حول الحياه الدنيا،إذ حقائق الحياه هى وسائل إيضاح لكلمات القرآن،و ما وسائل الإيضاح هذه إلّا...إن كلمات القرآن تحكم الحياه الحقيقيه،و لا تحكم ظروفا محدده لدرس من الدروس،أو عبره من العبر التى تنتهى بلحظه إلقائها.إن الحياه متصله و مفصله،و كلام اللّه متصل و مفصل،و هو يهيمن باتصاله و تفصيله على اتصال الحياه و تفصيلها.كلمات القرآن،كما سنتبين حقيقتها المعجزه فى هذا الشأن بعون اللّه،تنفرد بمعجزه عظمى لا- نظير لها فى أى ألفاظ فى أى كلام،و صدق اللّه العظيم وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ [النمل۹۳/].

و يشبّه المؤلف عمله بعمل الفيلسوف البريطانى برتراند رسل حينما حاول أن يصنع لغه رياضيه خاصه تعتمد الرقم و العدد لتحكم وقائع الحياه حكما عدديا،ثم حكما وصفيا أخلاقيا جدليا عمليا،و لكنه فشل بذلك،لأن مدار بحثه كان لغه البشر و فكر البشر و علم البشر،و لو بحث هذا بالقرآن لوجده،كما فعل المؤلف نفسه بهذه الكلمات مع الاختلاف الظاهر بالشكل،و ينتهى هذا الفصل بالتعميم التالى الذى يسميه المؤلف الحقيقه الكبرى (۲)«إن كلمات القرآن أكثر واقعيه-و أعز حقيقه-من مصطلحات الحقائق العلميه الثابته،و لا نقول الفروض أو النظريات.إن الكلمه القرآنيه(آيه)،و معناها العلاقه و الدلاله،قد وحّدت فى مدلولها بين الآيه القرآنيه و بين الآله المحسّه فى الوقائع الماديه فى الحياه،على أساس أن مدلول كلمه الآيه هو الوسيط بين علاقات الأشياء بحقائقها النسبيه و الحقيقه الكليه المطلقه»،بل إن هذا التطابق بين الكلمه القرآنيه و الحياه يعتبره المؤلف آيه بنفسها من اللّه«و كل من الكلمه القرآنيه و واقعها فى الحياه بينها علاقه حكم للقرآن،و خضوع فى واقع الحياه۹.

۱- القرآن تفسير الكون و الحياه-محمّد العفيفى،ص ۴۴-۴۶.

۲- المصدر السابق،ص ۴۸،۴۹.

يبينان معا،إن هذه العلاقه نفسها آيه من آيات اللّه»،«فالعلم كله،كما يقول المؤلف، بحاجه إلى هذا الاكتشاف الضخم فى كلمات القرآن،لأنها تحقق ذلك كله،و تعطى لكل مرحله منه حقها الواضح الذى يربط بين الماده و الأخلاق ربطا عضويا،كما حدد القرآن لكل كلمه من كلماته قيمه يقينيه،هى أعز من حقائق العلم التطبيقيه نفسها».

بهذا المنهج،يبدأ المؤلف تطبيق تفسيره للقرآن باعتباره هو نفسه تفسيرا للكون و الحياه،و يعتبر أن هذه الدراسه،فى مفردات القرآن و كلماته،قد حاولها العلماء القدماء حين أحصوا كلمات القرآن،و أحصوا حروفه و لكنهم لم يعمدوا إلى التدبر العميق فى العلاقات الواقعيه التى هى متحققه بين كل كلمه من كلمات القرآن و بين أسس الحقيقه على إطلاقها و نهاياتها من أفكار الناس و أعمالهم...أما الضروره التى تستدعى أن تكون الحاجه إلى كلمات غير بشريه للتعبير عن الحقيقه،فيرجعها المؤلف إلى أن الإنسان نفسه واقع فى الحياه التى تخضع للتغيير و التضاد و الحركه، فهو ليس فوق متناقضاتها لكى يستطيع أن يحكم عليها من خلال وعى بشرى خاضع لها أساسا،و يربط المؤلف هذه الضروره للكلام غير البشرى بالحاجه الأساسيه التى وقع العلم المعاصر بها،و هو يبحث عن لغه فكريه علميه سديده،و يستشهد بآراء بعض المفكرين على ذلك،و هو يعتبر أن القرآن هو المعجزه الباهره التى تحل هذه المعضله حلا لا يمكن أن يتم من أى طريق آخر.

إن العالم مملوء بالكلمات المبهمه و الأخطاء اللفظيه حتى تحولت الفلسفه إلى ضرب من الأدب،فتحول العالم إلى لغه الرياضيات كحل لهذه الإشكالات و المبهمات و سوء الفهم،و لكن لغه الرياضيات تعد و تحسب و لا تشخّص و تصف، و لا تحقق وجودا لغويا حيا متصلا بتغيرات الحياه و تضادها و اتصالها،فهى تعجز عن التعبير عن ذلك.إن تكاثر الحياه و مفرداتها و اختلافاتها تستدعى لغه أو كلمات تناسبها بعددها لكى تصفها،و هكذا كلما تكثرت حاجات الحياه تكثرت اللغه أو الكلمات الداله عليها،و لما كانت تغيرات الحياه لا نهائيه و غير محدوده و لا يمكن الوصول إلى كلمات غير محدوده و لا نهائيه،لذا وجب أن يكون هناك من يجمع كل تناقضات الحياه و يعلو عليها،و لا يجعلها مقابله لألفاظ أو كلمات اللغه،و إنما أيضا حاكما عليها بالحقيقه،تلك اللغه و الكلمات هى لغه القرآن و كلماته غير البشريه،لذا نرى المؤلف يؤكد على أن (١)«الحق هو ظهير للكلمه،فإن عبدنا الحقّ۶.

١- القرآن تفسير الكون و الحياه-محمّد العفيفى،ص ٧۶.

صدقت كلماتنا،و إن أخضعنا كلماتنا لكلمات اللّه فزنا بالعلم كله و بالنجاه من الشك و الريب و بحسن المسيره فى الحياه إلى مصيرنا الذى حتّمه الحق سبحانه»،و يقول (۱)«إن سائر قوانين الماده،و قوانين علاقاتنا البشريه بها مذخور هاهنا،فالكلمه القرآنيه ليست كلمه تقال كأى كلمه و لكنها حشد للحياه،خاضعه لكلمات اللّه خضوع عباده للّه»،إن اللّه هو الذى يمنحنا مصادر الأفكار و مواردها،فكلماتنا ما لم تخضع له،إذ نتفكر فى آياته،فهى باطله،و ليس فى وسعنا إذن أن نتكلم فنصدق.و يخلص المؤلف إلى القول (۲):«إن الحياه كلها لم تعرف كتابا واحدا عدا القرآن قد كشف الحقيقه الشامله للحياه ليكون هو،فى إحكام كلماته و فى تفصيلاتها،قد أحاطها بالحياه،و حكمها حكما شاملا للماده و الأخلاق جميعا».

على أن للمؤلف رأيا لا- يمكن تجاهله فى إيضاحنا لفهمه للقرآن و تفسيره،فهو، بناء على نظريته فى الكلمه القرآنيه المعجزه،و تطبيقا لعنوان كتابه«القرآن تفسير الكون و الحياه»يجد،ضمن مفردات تحليله لكلمه تفسير و تأويل الوارده فى القرآن، أن القرآن لا- يمكن أن يفسّره أحد مهما بلغ من العلم،و حتى الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم إنما بيّن القرآن بيانا و طبّقه عمليا و لم يفسّر القرآن أو يؤوله رغم أنه مؤيد من اللّه بأنه وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى(۳) إِنْ هُوَ إِلاّ- وَحْيٌ يُوحى [النجم۳/،۴]،فكيف يشرح هذه الفكره بمصطلحاته و صياغاته اللغويه الخاصه؟.يعقد المؤلف فصلا تحت عنوان(أ فلا يتدبرون القرآن)يبدأ بسؤال(كيف نفسّر حياتنا فى القرآن)ليصل إلى أن العلاقه لمّا كانت بين الإنسان،و شأنه الخضوع لكتاب اللّه،و بين القرآن،و شأنه حكم كل شىء بكلمات اللّه،لذا فمن أراد أن يفهم الحياه أو يفسّرها فلن يتحقق له شىء من ذلك إلا بالقرآن،فهذا محتاج إلى ربط أنفسنا بالقرآن كلّما تدبرنا القرآن،ثم ليستنتج (۳)«بأن القرآن حقا هو تفسير الحياه،و لا يمكن أن يكون للحياه تفسير غير القرآن، و المقصود بالحياه الكون و الحياه معا بل و الوجود حاضره و غائبه».

إنه ينعى على التعبير العملى للحياه عجزه عن متابعه متغيراتها و مفاجآتها فى كل لحظه (۴)«إذا كانت الحياه الإنسانيه كلها تبحث عن لغه للتعبير فلا- تجد لأن متغيرات الحياه تفاجئنا كل لحظه بما لم يكن فى الحسبان.إن القرآن هو التفسير، التفسير الوحيد اليقين المطلق لكل شىء للحياه فى شمولها و تفصيلها».۷.

۱- القرآن تفسير الكون و الحياه-محمّد العفيفى،ص ۷۸.

۲- المصدر السابق،ص ۸۶.

۳- المصدر السابق،ص ۲۸۶.

۴- المصدر السابق،ص ۲۸۷.

و هکذا حینما یستشهد بقول القرآن وَ لا یَأْتُونَکَ بِمَثَلٍ إِلاّ جِئْناکَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِیراً [الفرقان۳۳/]نراه یعلق علی کلمه تَفْسِیراً «بأنها جاءت مره واحده داله علی أن کلام اللّه هو الذی یفسّر کل ما عداه تفسیرا،هو الحق فلیس بعد الحق إلا الضلال،فمهما یحاول الناس أن یصیبوا الحق فی تفسیرهم أمرا من أمور الحیاه، فربما تیسّر لهم شیء من صواب الرأی أو القول،و لکنهم لن یعلموا یقینا أنهم أصابوا أحسن الحدیث و أحسن العمل،کمن یسافر من بلد إلی آخر،فلعلّه یختار مکانا من البلد وصل إلیه و غیره أحسن منه و هو لا یدری من ذلک شیئا،بل هو لا یدری وجه الإصابه فیما أصاب،و الیقین لا مصدر له إلا اللّه وحده لا شریک له»، و یستشهد بحدیث الرسول صلّی اللّه علیه و سلّم(من قال فی القرآن برأیه فأصاب فقد أخطأ)،و یشرحه بقوله (۱):«إن الأصل فی القرآن أنه هو الیقین،فلا یکافئه فی القول فیه إلا الیقین، و رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم هو المؤید بالیقین،فکان کلامه عن القرآن و عمله به هی الصدور الکامل عن الوحی،و کان ما عدا ذلک من القول بالرأی باطلا لأنه إن صادف وجه الحق،و الحق بکل شیء محیط،فلیس یغنی ذلک من الیقین بالحق و وضوحه فی وعی القائلین بالرأی،حیث لا یغنیهم أن یصلوا إلی الحق اتفاقا لا یقینا ظاهرا فی الاعتقاد الذی یبین العمل و یحققه تحقیقا کاملا فی الضمیر،فضلا عن سائر الجوارح،حیث هذا الظهور فی الفهم هو طریق التواصی بالحق و التواصی بالصبر».

إن المؤلف یری أن الآیه السابقه تدل دلاله واضحه علی أن القرآن هو الذی یفسّر و لیس هو الذی یفسّر،و یبنی رأیه علی أنه لیس من شأننا،نحن البشر العادیین،بعد ذلک أن نقول إن أحدا من الناس قد فسّر القرآن،فإذا القرآن مفسّر و لیس مفسّرا کما بیّن لنا القرآن،و کما حقق لنا التفصیل المطلق لکلمات اللّه تعالی،و قد استثنی مقام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم من هذا الحکم حیث هو المبلّغ،و هو المؤدی للأمانه،فهو المبیّن للبیان القرآنی،و بیان البیان هو التبلیغ و لیس التفسیر.أما کلمه التأویل و التی یعتبرها المؤلف أدق تعبیرا عن القرآن من کلمه التفسیر،فهو أیضا شیء لا یقدر علیه أحد إلا اللّه،و یکون التسلیم بالنص القرآنی،حسب وروده،هو البدیل الوحید للإنسان لکی یتلقی العلم الإلهی«فالتأویل هو عدم القدره البشریه علی التأویل،و معرفه الناس ذلک هو وضوح خضوعهم للحق سبحانه،و هذا هو التسلیم بحدود الإنسان و إقامه حدود اللّه فی النفس و الضمیر و الفکر،و المعادل العملی لهذه الحقیقه هی تلمذه۵.

۱- القرآن تفسیر الکون و الحیاه-محمّد العفیفی،ص ۲۷۵.

المؤمنين للقرآن تلمذه كامله شامله متصله،فالمؤمن لا- يدخل على القرآن برأيه و إنما يدخل عليه متأدّبا طالبا متتلمذا عالما بعجزه عن التأويل،و هذا هو أقوى أسباب العلم»،و أخيرا يصل إلى التعميم التالى لكل ما تقدم فيقول (۱):«فلسنا إذن من يفسّر القرآن أو يؤوله،و إن كان للرسول صلّى اللّه عليه و سلّم شرف بيانه،كما هو ظاهر فى آياته البيّنات، و تأويله فى حدود العمل به،إذ العمل نوع من أنواع التأويل،و مقام الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم منه هو مقام الأسوه الحسنه،و مقامنا نحن مقام التلقّى و الأخذ عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مع الوعى بأن تأويل القرآن على أساس شامل متصل بأمور الغيب جميعا إنما هو من أمر اللّه وحده،و لا سبيل لنا إلى ذلك إلا بالإيمان».

و مع أنه يعود ليستثنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من ذلك على أساس أنه قد يكون أن اللّه سبحانه قد أطلعه على تأويل من تآويل الغيب و لم يأمر ببيانه ليله أسرى به و عرج به إلى السماوات العلى،إلاّ أنّه يؤكد على أن ظاهر التأويل يدلّنا على أن تأويل الرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم للقرآن كان بالنسبه العمليه و القوليه أى تحقيق القرآن بالعبادات أنه يبنى موقفه على قوله تعالى: إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ(۱۷) فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ(۱۸) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ [القيامه۱۷/-۱۹]فيقول بأن اللّه وحده هو الذى بيّن كلامه و الرّسول الأعظم صلوات اللّه عليه قد بلّغ الرساله،و أدّى الأمانه بيانا للبيان لا بيانا لشىء محتاج لبيان، و إننا لنقرأ فى سوره الطلاق قوله تعالى رَسُولاً- يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللّهِ مُبَيِّناتٍ [الطلاق/ ۱۱]،كما نجد فى سوره البقره (۲)وَ لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَ ما يَكْفُرُ بِها إِلاَّ- الْفاسِ-قُونَ [البقره۹۹/]،أما دور الرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم فى بيان القرآن للناس،كما يقول المؤلّف،فيكون فى طريقين:

«أحدهما:متصل ببيان بيان القرآن ذاته،و ذلك من قوله تعالى،كما نجده فى سوره النّحل وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [النحل۴۴/]،فكون القرآن هو الذكر،فهو بيان واضح يحتاجه التذكّر الإنسانى ليعقد بينه و بين كل شىء العلاقه الصحيحه التى يتمّ بها الوعى بكل شىء،و الفعل المضارع يَتَفَكَّرُونَ يبيّن لنا الحاله الآنيه بين الإنسان و موضوعات تفكّره و تذكّره.

و ثانيهما:هو بيان حقائق الحياه الخارجيه،كما يبيّنها البيان القرآنى،و كما يبلّغ ذلك كلّه الرسول صلوات اللّه عليه،فذلك ما نجده فى الآيه الرابعه و الستّين من۲.

۱- القرآن تفسير الكون و الحياه-محمّد العفيفى،ص ۲۷۹.

۲- المصدر السابق،ص ۲۸۲.

سوره النحل أيضا وَ ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلاّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِی اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدیً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [النحل۶۴/].فالذی اختلفوا فيه هو أساليب تفكّرهم، و أساليب فهمهم لحقائق الأشياء،حيث بيّن لهم رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم أن الحقّ جلّ و علا هو وحده ربّ كل شیء،و هذا بيان قرآنی ظاهر،فعمل الرّسول صلّی اللّه عليه و سلّم هو بيان البيان».

و هكذا يصل المؤلّف إلی ختام هذا القول بالتأكيد الواضح علی أن كلمه التفسير فی إطلاقها علی القرآن علی أساس أن يكون الناس هم الذين يفسّرون القرآن شیء غير صحيح،أما من استطاع أن يتدبّر القرآن فليفعل علی أن لا يدّعی أنّه يفسر كلاما محتاجا لتفسير،و إنما علی أساس أن القرآن هو المفسّر للحياه و الأحياء،و أن من يتدبّر القرآن من النّاس فهو إنما يفسّر الناس القرآن و هم منه بهذا المكان.

إذن،فالمؤلّف يطرح كلمه التدبّر بدل التفسير و التأويل،و يعتبر أن مقام رسول اللّه عليه الصّلاه و السّلام هو قمه التدبّر و مقام الكافه هو التدبّر،كما يناقش المؤلف ابن تيميه فی قوله بأن السنّه شارحه للقرآن،و يناقش الأحاديث النبويه مثل(ألا إنی أوتيت القرآن و مثله معه)،و يعتبر التطبيق العملی للقرآن هو معناها،و يعتقد أن القرآن هو الذی يهيمن علی السنّه و يفسّرها و ليس العكس،كما هو مشهور عند المفسّرين و الأصوليين،كما يرد علی معنی الحديث(اللهم فقّهه فی الدين و علّمه التأويل)فی حق ابن عباس،فيورد اختلاف الرواه علی كلمه التأويل حيث وردت مرّه،و وردت بدلها الحكمه مره أخری ليصل إلی القول:«إن كلمه تأويل فی حديثه صلّی اللّه عليه و سلّم تعنی كلمه ما يؤول إليه أمر الحياه و الأحياء جميعا،إذ يحقّ اللّه تعالی الحقّ بكلماته»،و يعتقد أن المقصود بقوله تعالی هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ تَأْوِيلَهُ [الأعراف۵۳/]هو حالنا فی الدنيا، حيث نحن بانتظار دائب لما سبق به القرآن من أنباء الغيب،فتأويله متحقق فی الدنيا علی توالی اكتشافات العلوم،و فی قمّه هذه الاكتشافات يوم يأتی تأويله،أی يأتی يوم القيامه،أما كلمه التأويل فی الآيه الأخری وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ [آل عمران/ ۷]،أما الراسخون فی العلم فعلمهم هو تسليمهم بالجهد الإنسانی،و بذلك يصبح الإيمان هو أعلی درجات العلم غير المباشر،أی العلم المتصل بالإيمان بالحق.

فهاهنا يتحقق العلم بعدم العلم البشری،و يتحقّق الإيمان بالعلم الإلهی وَ الرّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنّا بِهِ [آل عمران۷/]و قولهم آمَنّا بِهِ هو اتصالهم بعلم اللّه،فهم بالعباده الخالصه لربّهم سبحانه بين عبادتين:عباده بالفكر،فهم الراسخون فی العلم، و عباده بالعمل،فهم فی تطبيق متواصل للعلم الذی لا يحصل بالاكتساب و إنما يحصل بالاقتراب وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ [العلق۱۹/]،و حينما يسأل هل بالإمكان الاستفاده

من العلوم،كالطب و الفلك و علوم الـذرّه و الرياضـيّات و غيرها،كوسائل لتـدبّرنا للقرآن؟يجيب أن الاحتياط الواجب اتخاذه هنا هو أن يكون المنطلق من كون هـذه العلوم هى فى مكـان خضوعهـا للقرآن و خضوع كـل شـىء لأحكـام القرآن«إننـا مثلا حين نصـنع الصواريـخ،و حين نصـعد للقمر ننظر للإنجـاز فى ذاته و المنجزات فى ذاتها،و لا نـدرك أن القرآن وصّل كل شـىء بكل شىء فالأخلاـق التى تحـدّد لنـا قيمه المنجزات و طريق عملنا بها إنما هى فى القرآن.إن القرآن يحكم القوانين الأساسيه لحركه الفصـل و الوصـل فى أعمق أعماق النفس و الحياه،القرآن يحكم حركه الحياه التى نجهل مصيرنا فى غاياتها البعيـده»و المؤلّف يسـتغفر اللّه العظيم حينمـا يقـال له إن العلم البشـرى من جهه،و القرآن من جهه يكمـل بعضـهم بعضـا و يجيب (۱):«القرآن فى الحكم لأـنه كلاـم اللّه فهو(الآـمر)و حياتنـا فى الخضوع لأنّهـا من خلق اللّه فهى فى (الخلق)،يقول اللّه تعـالى أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبـارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ [الأعراف۵۴/]، فحقيقه ذلـك أن أى ابتـداع فى العلوم إنمـا هو الخضوع القهرى لكلاـم اللّه،فإن عرف الناس حسن الأداء للمنتجات فهم متصلون فكرا و عملا بالحياه،فهذا الاتصال هو الحق و اللّه يحقّ الحقّ بكلماته».

و لعـلّ من أخطر ما جاء به هو قوله بأن القرآن هو الـذى يحـدّد اللغه و ليست اللغه هى التى تحـدّد القرآن،فى تعليقه على تفسير ابن تيميه لكلمه الصـمد،و التى قـال بـأن معناهـا اللغوى(غير الأجوف)و يقول (۲):«أسـتغفر اللّه العظيم،إن اللّه تعـالى ليس كمثله شىء و الأشـياء منها الأجوف و منها المصـمد،و هـذه العثره الكبرى من عثرات الكرام قـد أدّى إليها الاعتماد على اللغه،و القرآن هـو الـذى يحـدّد اللغه،و ليست اللغه هى الـتى تحـدّد القرآن،أ لم نتـدبر معـا من قبـل قوله تعـالى وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا [الرعد۳۷/]،فـالقرآن،إذن،كلمـاته هى أحكـامه،و الكلمـه مـن كلمـات اللغـه إذا كـانت قـد جـاءت فى القرآن فهى بموقعهـا من القرآن،و بصـيغتها القرآنيه إنما هى حكم يزيدنا بيانا كلما ازددنا توسـعا فى التدبّر،و نحن فى التدبّر خاضعون بلغتنا و حياتنا كلها لهذه الأحكام القرآنيه».۵.

۱- القرآن تفسير الكون و الحياه-محمّد العفيفى،ص ۳۱۱.

۲- المصدر السابق،ص ۳۱۵.

الإعجاز العلمی فی الإسراء و المعراج

اشاره

حینما نتحدّث عن معجزه الإسراء و المعراج فی إطار المعجزات العلمیه الخارقه لجمیع العصور،ما جاء منها و ما لم یجیء،فإنما لکی ندلّل بهذه المعجزه علی استمراریه إعجاز نبوه خاتم النبیین من خلال القرآن الکریم،و إذا کانت أکثر المعجزات العلمیه المذکوره فی القرآن قد أصبحت الآن معلومه لدی الکثیر من العلماء فی الفیزیاء و الکیمیاء و الفلک و البیولوجیا...إلخ،و قد أصبح الإیمان من خلالها بالقرآن،و بصدق نبوه النّبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم واضحه و ساطعه،إلّا أن القیمه الأکبر فی المعجزه القرآنیه فی الجانب العلمی بقیت،و ستبقی أبد الدهر،مما یستحیل تفسیره مهما تقدّمت العلوم و تطورت،و مهما اکتشف من حقائق الکون و الإنسان.إن العلم تحدّث عن ثلاثه أغطیه للجنین،أو ثلاثه حجابات فی بطن أمّه،و اکتشفها حدیثا، و کان القرآن قد سبقه فی الحدیث عن الظلمات الثلاث،کما أن العلم تحدّث عن وحده الکون،أی أن السماء و الأرض کانتا واحده و انفجرت و لا زالت تتمدّد فی عملیه الانفجار،و کان القرآن قد قال أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ کانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما [الأنبیاء ۳۰/]،و کثیر من المعجزات العلمیه المکتشفه حدیثا،و التی سبق القرآن فیها العلوم کلّها فأشار إلیها،إلّا أن معجزه الإسراء و المعراج تبقی حتی الیوم قائمه تذکّر بإعجاز خارق لا یتکرّر،و لا یستطیع أحد أن یدخله فی مفردات الفیزیاء و الکیمیاء و الکون،أی إنه باق علی إعجازه کما کان حینما أرسل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم إلی قریش، فهو کما کان معجزا لهم لا زال معجزا لنا حتی الآن مع کل التقدم العلمی علی کافه المستویات.

لقد اکتشف العلم الحدیث الکون و أبعاده،و اکتشف الحیاه و نشأتها عن الماء، و اکتشف کیفیه حدوث الحمل و الجنین فی الأم،کما اکتشف الذره بمفرداتها و الخلیه الحیه بأسرارها و الطبیعه و جیولوجیا الأرض،کما اکتشف حرکه الکواکب و المجرّدات و الفضاء...إلخ،و استطاع أن یصل إلی مفردات علمیه سبقه القرآن بها منذ أربعه عشر قرنا،و لکنّه،بکل الأحوال،اکتشف هذا الآن و أصبح الإعجاز لا

ينصب إلّا على أن القرآن له السبق التاريخى فى هذا،و أنّه جاء عن طريق رجل أمّى لا يقرأ و لا يكتب،فى حين هو يفحم علماء القرن.

إذن،ما دمنا قد فهمنا فى القرن العشرين أسرار الحياه و الكون و الذّرّه،فلنا إعجازنا نحن أيضا بقدرتنا على هذا التطور و التقدّم،و بذلك أصبحت كثير من المعجزات العلميه -لا- كلّها-فى القرآن مسلّما بها فى العلوم،فكيف أستطيع أن أدعو إلى الإسلام و القرآن بعد أن انكشفت معالم الحياه و الكون أمام الإنسان الجديد،فاستطاع أن يفهم الكثير، و حتى إذا ما قلت له إن هذا الإعجاز العلمى يدل على أن القرآن ليس من كلام البشر،فهو لا بد أن يكون من عند اللّه تعالى،و إذا ما صدّق المستمع هذا القول فإنه سيبقى يطالب بدليل إعجازى مستقبلى مستحيل حتى على نظرياته العلميه و اكتشافاته الجديده أن تصل إليه،و هنا يأتى إعجاز الإسراء و المعراج كدليل لاستحاله كل ما جاء به على قدره البشر مهما توصّلوا إلى تقدم و تقنيه.

و الإسراء و المعراج ليس آيه تقرأ فى القرآن ثم نحاول أن نبنى عليها افتراضاتنا العلميه،أى إنّها ليست خبرا و إنما حدثا واقعيا وقع للرسول صلّى اللّه عليه و سلّم و عاشه بكيانه المادى الطبيعى،فهو يتجاوز الإخبار بالحقائق العلميه المحتمله إلى الحوادث الواقعيه المعاشه من قبل الرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم فى رحلته المباركه،فإذا ما قال القرآن الكريم وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ [الأنبياء ۳۰/]أو قال أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما [الأنبياء ۳۰/]فهذا يمكن طرحه كفرضيه علميه،و البرهنه عليه من خلال المختبرات و المجاهر و التلسكوبات و نظريات الفيزياء الذريه و الكونيه،و لكن حينما يقول القرآن الكريم إن محمّدا صلّى اللّه عليه و سلّم انتقل عبر(دابه)من مكه إلى القدس،و من القدس عبر المعراج إلى السماوات العلى،فهذا لا- يبقى تحت التجربه العلميه لأنه يتجاوز كل الفرضيه العلميه المعروفه حتى اليوم إلى ما هو أبعد من خيال أى عالم أو أديب،فكيف يتحقّق ماديا و طبيعيا؟بل إنه قد يتناقض مع مفردات العلوم الحديثه متجاوزا لها إلى أبعد مما يتصور الخيال.فإذا كانت العلوم الحديثه لا تستطيع أن تنقل الإنسان إلى القمر إلّا عبر التكنلوجيا المعقده و أجهزه التنفس الصناعيه،فكيف بها إذا واجهت تحدّى اختراق السماوات العلى كلها فى ليله واحده؟و إذا ما رفض الإنسان أن يصدّق بمعجزه الإسراء و المعراج فسوف يجابه بمئات المعجزات العلميه التى تحقّقت اليوم قد أشار لها القرآن و حدّدها قبل ألف و أربعمائه سنه؟فالذى يصدّق بمئات المعجزات العلميه،و التى ليس ثمه تجربه علميه سبقتها للدلاله عليها، و إنما هى آيه من كلمات فقط جاء بها الرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم و هو أمّى لا يقرأ و لا يكتب،هذا

الذی یصدّق بهذه المعجزات العلمیه کلها،المکتشفه حتی الآن لا بدّ له أن یسلّم بأن القرآن هو من عند اللّه و لیس کلام البشر،و بالتالی فالذی یصدّق فی مئات النماذج العلمیه،لما ذا أنکر علیه هذه المعجزه التی لم یصل علمی حتی الآن إلیها؟فلا بد أن أصدّق.و إذا ما سلّم بأن اللّه تعالی هو الذی تکلم بالقرآن-و هذا ما لا بد له منه- إذن فلا بد أن یصدّق أن الذی جاء به هو رسول من اللّه تعالی إلی البشریه،علی السیاق المعروف فی بعث الرسل أجمعین،و هکذا تکون القیمه الإیمانیه للإنسان المعاصر،حینما یسلّم غیبا بما لم یثبت له علما،فیحوز درجه المؤمنین الأوائل الذین آمنوا بالقرآن فصاحه و بلاغه إعجازیه،و لم یستطیعوا أن یصلوا إلی کل معانی القرآن العلمیه،فأسلموا و آمنوا و لم یطلبوا من البرهان أکثر مما جاءهم و تحمّلته عقولهم.

إذن،معجزه الإسراء و المعراج،بهذه الصوره الموصوفه بها،تبقی دلیلا أکیدا علی إعجاز القرآن و علی استمراریه دعوه النّبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم من خلال القرآن و شمولیتها لکل الخلق،و تؤکّد أن خاتم النبیین لم یترک العالم دون معجزه حتی و هو قد فارق الحیاه،بل ترک لهم معجزه ناطقه تتکلّم بکل اللغات الإنسانیه،و بوجوه متعدّده تناسب کل عصر من العصور حتی قیام الساعه،و لغتها الیوم و وجهها هی العلوم و التّقدّم العلمی،فلو أرسل الرّسول صلّی اللّه علیه و سلّم الیوم إلی العالم لن تتغیّر مفردات کلماته، و لن یتغیّر القرآن الذی جاء به فهو قد جاء للناس کافه بشیرا و نذیرا و شاهدا علی الجمیع،و قد جاء قرآنه لیبقی الکتاب الذی فیه تبیان کل شیء،لأنه تعالی لم یفرّط فی الکتاب بشیء،و یدلّل کل یوم علی صدقه و إعجازه،و قد أکّد،بأکثر من آیه،أنّه یتحدّث لکل إنسان فی کل عصر علی مدی الزمان کله و یعطیه دلیله و حجّته سَنُرِیهِمْ آیاتِنا فِی الْآفاقِ وَ فِی أَنْفُسِهِمْ حَتّی یَتَبَیَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ [فصلت۵۳/]و قد تبیّن لنا الیوم أنّه الحق الأوحد فی کل جانب و فی کل مکان و زمان.علی أن من میزه هذه المعجزه أنّها جاءت کحادثه للرّسول صلّی اللّه علیه و سلّم مما تعتبر به تعظیما له و تقدیرا و تبجیلا،فلو کانت آیه خبریه لکانت کالآیات الأخر التی تکتسب قیمتها من کونها فی القرآن و لیس للرسول صلّی اللّه علیه و سلّم فیها إلّا ما له فی غیرها من آیات القرآن،أما هذه المعجزه فهی قد حدثت له شخصیا و فردیا،و لما کانت هی أعظم المعجزات القرآنیه علمیا،کما نفهمها الیوم،فالرّسول صلّی اللّه علیه و سلّم یکون له من هذه العظمه الإعجازیه الحظ الأوفر و الموقع المتقدم.

و هکذا نری أن اللّه سبحانه و تعالی،حتی فی آیات الإعجاز العلمی التی بهرت العقول و الألباب،جعل لرسوله الکریم أفضلیه کبیره علی جمیع المعجزات الوارده

فی القرآن الکریم،و هذا ما جعل الشیخ أحمد محیی الدین العجوز یقول فی کتابه «معالم القرآن فی عوالم الأکوان»ما یلی.. (۱)«فأراد سبحانه أن یکون لنبیّه محمّد صلّی اللّه علیه و سلّم الأسبقیه فی کل تقدّم و انطلاق،فمهما تقدّم الناس فی علومهم،و مهما ترقّوا فی فنونهم،و مهما توصّلوا إلیه فی أعمالهم من وسائل النقل و الأسفار،و مهما ابتکروا من صنعه لاجتیاز الأبعاد و ارتقاء المعالی،فإنّه خصّ نبیّه محمّدا صلّی اللّه علیه و سلّم بأعظم من ذلک،برحله أرضیه أسرع،و رحله سماویه أبلغ،فلا یکون لغیره تفوّق فی الانطلاق، و لا تمیّز فی الارتقاء».

إن معجزه الإسراء و المعراج حدثت قبل أربعه عشر قرنا،فما هی القیم المعنویه و الاعتباریه فیها؟و کیف فهمت هذه المعجزه آنذاک؟و کیف کانت المعانی التعظیمیه للرّسول صلّی اللّه علیه و سلّم من قبل ربّه سبحانه و تعالی تفهم من قبل أولئک البشر الذین کانت استحالتها المطلقه تساوی الإیمان المطلق بها،و التسلیم بصدقها من قبل المؤمنین حقا حتی قیل إن الصدّیق أبا بکر سمّی صدّیقا لأنه أوّل من صدّق بها رغم استحالتها المطلقه فی الذهن البشری الاعتیادی،و لکن إیمانه کان أقوی من مفردات الاستحاله الطبیعیه التی طرحتها هذه المعجزه علیه،و بغضّ النظر عن معقولیتها من عدم معقولیتها،بل و عدم القدره علی البرهنه علی إمکانها حتی کمعجزه؟أما مضمون تفسیره لتصدیقه فهی،کما جاءت الروایه التاریخیه،من أن (۲)«رجالا من المشرکین سعوا إلیه فقالوا:هل لک إلی صاحبک یزعم أنّه أسری به إلی بیت المقدس؟قال:و قد قال ذلک؟قالوا:نعم،قال:لئن قال ذلک لقد صدق،قالوا:

أ تصدّقه أنه ذهب إلی بیت المقدس و جاء قبل أن یصبح؟قال:نعم إنی لاصدّقه فیما هو أبعد من ذلک،أصدّقه فی خبر السماء فی غدوه و روحه»،علی أن البعض من ضعاف الإیمان من المسلمین ارتدّوا بعد حدیث الإسراء لقلّه إیمانهم،و عدم قدره عقولهم علی مجرّد التصدیق بالانتقال من مکّه إلی القدس و العوده فی لیله واحده، فکیف بخبر السماوات السبع و ما فوقهن؟.فما هو الإسراء و المعراج؟و ما هی الآیات و الأحادیث الداله علیه؟و کیف فسّرها و فهمها الأقدمون قبلنا؟ یقول القاضی عیاض،فی باب کرامه الإسراء،فی کتابه الشفا فی أحوال المصطفی (۳)«و من خصائصه صلّی اللّه علیه و سلّم قصه الإسراء و ما انطوت علیه من درجات الرفعه،۳.

۱- معالم القرآن فی عوالم الأکوان-أحمد محیی الدین العجوز ص ۱۵۵.

۲- محمّد-محمّد رشید رضا،ص ۱۷۷.

۳- الشفا فی أحوال المصطفی،القاضی عیاض،ج ۲،ص ۳۴۳.

مما نبه عليه الكتاب العزيز و شرحته صحاح الأخبار،قال اللّه تعالى سُبْحانَ الَّذِی أَسْری بِعَبْدِهِ لَیْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ.. [الإسراء ۱/]الآیه،و قال تعالى وَ النَّجْمِ إِذا هَوی [النجم ۱/]إلى قوله لَقَدْ رَأی مِنْ آیاتِ رَبِّهِ الْکُبْری [النجم۱۸/]فلا خلاف بین المسلمین فی صحه الإسراء به صلّی اللّه علیه و سلّم،إذ هو نصّ القرآن،و جاءت بتفصیله و شرح عجائبه و خواص نبیّنا محمّد صلّی اللّه علیه و سلّم فیه أحادیث کثیره منتشره».

و ملخص حدیث الإسراء و المعراج،کما أورده ابن قیّم الجوزیه فی کتابه«زاد المعاد فی هدی خیر العباد»،و الذی أخذه عن أدق الأحادیث،یقول (۱):«ثم أسری برسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم بجسده علی الصحیح من المسجد الحرام إلی بیت المقدس راکبا علی البراق،صحبه جبریل علیهما الصّلاه و السلام،فنزل هناک و صلّی بالأنبیاء إماما و ربط البراق بحلقه باب المسجد...ثم عرج به تلک اللیله من البیت المقدس إلی السماء الدنیا،فاستفتح له جبریل ففتح له فرأی هناک آدم أبا البشر فسلّم علیه فردّ علیه السّلام و رحّب به و أقرّ بنبوته،و أراه اللّه أرواح السعداء عن یمینه و أرواح الأشقیاء عن یساره،ثم عرج به إلی السماء الثانیه فاستفتح له فرأی یحیی بن زکریا و عیسی ابن مریم فلقیهما و سلّم علیهما فردّا علیه و رحّبا به و أقرّا بنبوته،ثم عرج به إلی السماء الثالثه فرأی یوسف فسلّم علیه و رحّب به و أقرّ بنبوته،ثم عرج به إلی السماء الرابعه فرأی فیها إدریس فسلّم علیه و رحّب به و أقرّ بنبوته،ثم عرج به إلی السماء الخامسه فرأی فیها هارون بن عمران فسلّم علیه و رحّب به و أقر بنبوّته،ثم عرج به إلی السماء السادسه فلقی فیها موسی بن عمران فسلّم علیه و رحّب به و أقرّ بنبوته،فلما جاوزه بکی موسی فقیل له:ما یبکیک؟فقال:أبکی لأن غلاما بعث بعدی یدخل الجنّه من أمّته أکثر مما یدخلها من أمّتی،ثم عرج به إلی السماء السابعه فلقی فیها إبراهیم فسلّم علیه و رحّب به و أقرّ بنبوته،ثم رفع إلی سدره المنتهی،ثم رفع له البیت المعمور،ثم عرج به إلی الجبار جلّ جلاله،فدنا منه حتی کان قاب قوسین أو أدنی،فأوحی إلی عبده ما أوحی،و فرض علیه خمسین صلاه،فرجع حتی مرّ علی موسی فقال له:بم أمرت؟قال:بخمسین صلاه،قال:إن أمّتک لا تطیق ذلک،ارجع إلی ربک فاسأله التخفیف لأمتک،فالتفت إلی جبریل کأنه یستشیره فی ذلک،فأشار أن نعم إن شئت.فعلا به جبریل حتی أتی به الجبار تبارک و تعالی و هو فی مکانه-و هذا لفظ البخاری فی بعض الطرق-فوضع عنه عشرا،ثم أنزل حتی مرّ۵.

۱- زاد المعاد فی هدی خیر العباد-ابن قیم الجوزیه،ج ۳،ص ۳۴-۳۵.

بموسی فأخبره فقال:ارجع إلی ربک فاسأله التخفیف،فلم یزل یتردّد بین موسی و بین اللّه عزّ و جلّ حتی جعلها خمسا،فأمره موسی بالرجوع و سؤال التخفیف،فقال:

قد استحییت من ربی و لکن أرضی و أسلّم،فلما بعد نادی منادی:قد أمضیت فریضتی و خففت عن عبادی»،و لا شک أن هناک تفاصیل کثیره فی الأحادیث الأخری لا حاجه لنا لروایتها هنا،لننتقل إلی التفسیرات.

۱-معجزه الإسراء و المعراج و تفسیرها لدی القدامی

أ-التفسیر العقلی:

لقد تحدّد نقاش الأقدمین من المفسرین و العلماء فی معجزه الإسراء و المعراج علی نقطتین أساسیتین و ما یتفرّع عنهما،و هما:هل کان الإسراء و المعراج بالروح و الجسد،أم کان بالروح فقط؟و یخرج من هاتین النقطتین أن الإسراء و المعراج إذا کان بالروح أو بالمنام فلا إشکال فیه،أما إذا کان یقظه و بالروح و الجسد،فکیف یمکن تفسیر السرعه التی استخدمها الرّسول صلّی اللّه علیه و سلّم فی انتقاله من مکه إلی بیت المقدس ثم إلی السماوات العلی؟فالسرعه المعروفه لدیهم کانت لا تتجاوز سرعه الحصان و الجمل،و هم یقطعون المسافه بین مکه و بیت المقدس بأربعین یوما، فکیف یستطیع الرّسول صلّی اللّه علیه و سلّم أن ینتقل بساعات ما یستغرقونه هم بقطعه شهورا أو أیاما؟أما لو عرفوا سعه الکون و حدوده البعیده التی تقاس الآن بالسنین الضوئیه لکان إنکارهم أشدّ،لاستحاله هذا الانتقال بأی واسطه معروفه.إذن،کان علی الذین یقولون إن الإسراء و المعراج قد تمّ بالروح و الجسد و یقظه لا-فی المنام،أن یبرهنوا أولا-علی إمکانیه وجود سرعه خارقه فی الکون تتجاوز مفهومهم عن السرعه،ثم یبرهنوا،بعد ذلک،علی وقوع الإسراء و المعراج حقیقه فی جسد النبی و روحه عبر هذه الإمکانیه النظریه؟.أما أن الإسراء و المعراج کان بالروح و الجسد،فقد ذکر المفسّرون أنّه کان کذلک بدلیل قوله تعالی أَسْری بِعَبْدِهِ ،فمسمی العبد هو للجسد و الروح و لیس للروح،کما أنّه لا حاجه لأن یقول اللّه تعالی فی بدء سوره الإسراء سُبْحانَ الَّذِی فالتسبیح إنما یکون للأمور العظیمه فقط،و لو کان بالروح لما کان معجزه للرسول صلّی اللّه علیه و سلّم،کما استدلّوا علی بذلک بقوله ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغی [النجم۱۷/]و البصر من آلات الجسد لا الروح،کذلک أن الحدیث النبوی یروی أن الإسراء کان عبر رکوب دابه البراق،و لو کان بالروح لما احتاج إلی دابه للانتقال، و استدلوا أیضا علی أنه لو کان بالروح،و مناما،لما احتاج أحد إلی تکذیبه،فالأحلام

لا- تحتاج وسائط ماديه خارقه،و لو كان بالروح لما قالت له أم هانى:لا تحدّث به قومك فيكذبونك،و لما ارتدّ بعض ضعاف الإيمان لأنهم علموا أنّه يقول بأنه انتقل بجسده و روحه،و لما سمّى الصدّيق صدّيقا للحديث المذكور سابقا.

إذن،فالأساس العقلانى و اللغوى و الاعتبارى و مجريات الأحداث،بعد إخبار الرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم لهم و إنكارهم عليه،كان كل هذا مقنعا حقا لكى يجمع جمهور علماء المسلمين على أن الإسراء و المعراج كان بالروح و الجسد حقيقه و يقظه لا- مناما،أما مسأله السرعه الخارقه غير المعروفه لدى القدماء فكانت هذه من أكبر القضايا التى كان عليهم أن يبرهنوا عليها عقليا،و من باب الإمكانيه المطلقه،لكى يمكن فهم حقيقه معجزه الإسراء و المعراج ضمن محدوديه مفاهيمهم و أفكارهم آنذاك!و لعل أكثر الذين أولوا هذه المعجزه اهتماما بتفسيرها هو شيخ المفسرين الفخر الرازى فى تفسيره الكبير.

و قد طرح الفخر الرازى المسأله معتمدا على منطق الجواز العقلى و الإمكانيه المتاحه،يقول:«الحركه الواقعه فى السرعه إلى هذا الحد ممكنه فى نفسها و اللّه قادر على جميع الممكنات،و ذلك يدل على أن حصول الحركه فى هذا الحد من السرعه غير ممتنع»،و يبدأ بالبرهنه على إمكانيه وجود هذه السرعه من خلال عده براهين، بعضها يتعلّق بمفاهيم قديمه لعلم الفلك،و بعضها يتعلّق بالمنطق العقلى و الكلامى، و نلخص بعض هذه البراهين العقليه كما يلى (۱):

۱)يرى أنه كما يستبعد فى العقل صعود الجسم الكثيف من مركز العالم إلى ما فوق العرش،كذلك يجب أن يستبعد نزول الجسم اللطيف الروحانى من فوق العرش إلى مركز العالم،فإن كان القول بمعراج محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم فى الليله الواحده ممتنعا فى العقول،كان القول بنزول جبريل عليه الصلاه و السلام من العرش إلى مكه فى اللحظه الواحده ممتنعا.

۲)إن أرباب الملل و النحل يسلّمون بوجود إبليس،و يسلّمون بأنّه هو الذى يتولى إلقاء الوسوسه فى قلوب بنى آدم،و يسلمون بأنه يمكنه الانتقال من المشرق إلى المغرب لأجل إلقاء الوساوس فى قلوب بنى آدم،فلمّا جوّزوا مثل هذه الحركه السريعه فى حق إبليس فلأن يسلّموا جواز مثلها فى حق أكابر الأنبياء كان أولى.

۳)يستشهد الرازى بأن الرياح كانت تسير بسليمان شهرا إلى المواضع البعيده،كما۰.

۱- تفسير الفخر الرازى-الفخر الرازى،ج ۲،ص ۱۴۸-۱۵۰.

ورد فی القرآن،و یستنتج أن الحسّ یدل علی أن الریاح تنتقل عند شده هبوبها من مکان إلی مکان فی غایه البعد فی اللحظه الواحده،إذن فالحرکه السریعه ممکنه بذاتها.

۴)إن القرآن یدل علی أن من عنده علم من الکتاب أحضر عرش بلقیس من أقصی الیمن إلی أقصی الشام فی مقدار لمح البصر بدلیل قوله تعالی قالَ الَّذِی عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْکِتابِ أَنَا آتِیکَ بِهِ قَبْلَ أَنْ یَرْتَدَّ إِلَیْکَ طَرْفُکَ [النمل ۴۰/]و إذا کان ممکنا فی حق بعض الناس علمنا أنّه فی نفسه ممکن الوجود.

۵)إن من الناس من یقول:الحیوان إنما یبصر المبصرات لأجل أن الشعاع یخرج من عینیه و یتصل بالمبصر،ثم إنّا إذا فتحنا العین و نظرنا إلی رجل رأیناه،فعلی قول هؤلاء انتقل شعاع العین من أبصارنا إلی رجل فی تلک اللحظه اللطیفه،و ذلک یدل علی أن الحرکه الواقعه علی هذا الحد من السرعه من الممکنات لا- من الممتنعات،فثبت،بهذه البراهین،أن حصول الحرکه المنتهیه فی السرعه إلی هذا الحد أمر ممکن الوجود فی نفسه.و هکذا یستنتج الرازی أن هذه الحرکه لما کانت ممکنه فی نفسها وجب أن لا- یکون حصولها فی جسد محمّد صلّی اللّه علیه و سلّم ممتنعا، و الذی یدل علیه فی رأیه«أن الأجسام متماثله فی تمام ماهیّاتها»،فلما صح حصول مثل هذه الحرکه فی حق بعض الأجسام وجب إمکان حصولها فی سائر الأجسام،و ذلک یوجب القطع بأن حصول مثل هذه الحرکه فی جسد محمّد صلّی اللّه علیه و سلّم أمر ممکن الوجود(فی نفسه)،و یضیف لهذا«ثبت بالدلیل أن خالق العالم قادر علی جمیع الممکنات،و ثبت أن حصول الحرکه البالغه فی السرعه إلی هذا الحد فی جسد محمّد صلّی اللّه علیه و سلّم ممکن،فوجب کونه تعالی قادرا علیه،و حینئذ یلزم من مجموع المقدمات أن القول بثبوت هذا المعراج أمر ممکن الوجود فی نفسه..

أقصی ما فی الباب أنه یبقی التعجّب إلّا أن هذا التعجّب غیر مخصوص بهذا المقام،بل هو حاصل فی جمیع المعجزات».

و من أعجب التفسیرات التی ذکرها الآلوسی فی تفسیره عن مسأله المعراج،و ضمن إطار مذهب القدامی نفسه،ما ذکره و هو لا یؤمن به حیث یقول (۱):«و من العجائب ما سمعته عن الطائفه الکشفیه،و العهده علی الراوی،أن للروح جسدین:جسد من عالم الغیب لطیف لا دخل للعناصر فیه،و جسد من عالم الشهاده کثیف مرکّب من العناصر،۱.

۱- روح المعانی-الآلوسی،ص ۱۰-۱۱.

و النّبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم حین عرج به ألقی کل عنصر من عناصر الجسد العنصری فی کرته،فما وصل إلی فلک القمر حتی ألقی جمیع العناصر،و لم یبق معه إلّا الجسد اللطیف فرقی به حیث شاء اللّه تعالی،ثم لما رجع علیه الصّلاه و السّلام رجع إلیه ما ألقاه و اجتمع فیه ما تفرّق منه،و لعمری إنه حدیث خرافه لا مستند له شرعا و لا عقلا»،علی أنّه بعد أن یعجز عن التفسیر الحقیقی لهذه المعجزه،و بعد أن یحدّد المسافات التی قطعها الرّسول صلّی اللّه علیه و سلّم فی إسرائه و معراجه یعود إلی رأی لطیف لیخرج به من هذا المأزق و للاعتراف بالعجز فیقول:«و قال بعضهم أمر المعراج أجلّ من أن یکیف،و ما ذا عسی یقال سوی إن المحب القادر الذی لا یعجزه شیء دعا حبیبه الذی خلقه من نوره إلی زیارته، و أرسل إلیه من أرسل من خواص ملائکته،فکان جبریل هو الآخذ برکابه و میکائیل هو الآخذ بزمام دابته إلی أن وصل إلی ما وصل إلیه،ثم تولّی أمره سبحانه بما شاء حتی حصل،فأی مسافه تطول علی ذلک الحبیب الرّبّانی،و أی جسم یمتنع عن الخرق لذلک الجسد النورانی،و من تأمّل فی العین و إحساسها بالقریب و البعید،و لو کان فاقدها،و ذکر له حالها لأنکر ذلک إنکارا ما علیه من مزید،و کذا فی غیر ذلک من آثار قدره اللّه تعالی الظاهره فی الأنفس و الآفاق و الواقع علی جلاله قدرها الاتفاق،لم یسعه إلّا تسلیم ما نطقت به الآیات و صحت به الروایات».

هکذا فسّر القدامی بعقولهم و منطقهم مسأله الإسراء و المعراج،فکیف فسّرها الصوفیه بروحانیاتهم؟.

ب-التفسیر الصوفی:

لقد کان ترکیز الصوفیه،فی تفسیرهم للإسراء و المعراج،علی الجانب التقدیری الاعتباری للرّسول صلّی اللّه علیه و سلّم أکثر من الجانب التفسیری العقلی أو العلمی خاصه،و أن الاتجاه الصوفی،کما هو معروف،له اتجاه للإغراق فی الروحانیات و الأنوار الکشفیه و ما شاکل ذلک،و مع هذا فقد کان عندهم من المعانی العمیقه و النکات الدقیقه ما کان یعجز عنه أکابر الفلاسفه و المتکلمین و حتی علماء التفسیر،لهذا نری ابن عربی،کما ینقل عنه الشعرانی،یقول عن الإسراء و المعراج (۱):«ما نقل الحق تعالی محمّدا صلّی اللّه علیه و سلّم من مکان إلی مکان إلاّ لیریه ما خصّ تعالی به ذلک المکان من الآیات و العجائب الدالّه علی قدرته تعالی،من حیث وصف خاص لا یعلم من اللّه تعالی إلّا بتلک الآیه،کأنه تعالی یقول ما أسریت بعبدی إلّا لرؤیه الآیات لا إلیّ،ی.

۱- جواهر البحار-النبهانی ج ۲،ص ۴۵،عن الیواقیت و الجواهر للشعرانی.

لأنه لا يحوينى مكان،و نسبه الأمكنه إلى نسبه واحده،و كيف أسرى بعبدى إلىّ و أنا معه حيث كان»،بل إن الصوفيه يدلّلون على أن الإسراء بالجسد و الروح من خلال قولهم«إنه لما كان الاستواء على العرش تمدّحا للّه عزّ و جلّ،جعل اللّه لنبيّه صلّى اللّه عليه و سلّم كذلك نسبه على طريق التمدّح عليه،حيث كان العرش أعلى مقام ينتهى إليه من أسرى به من الرّسل عليهم الصلاه و السّلام،و هذا يدل على أن الإسراء كان بجسمه صلّى اللّه عليه و سلّم،و لو كان الإسراء رؤيا لما كان الإسراء و لا الوصول إلى هذا المقام تمدّحا و لا وقع من الأعراب فى حقّه إنكار على ذلك،لأن الرؤيا يصل الإنسان فيها إلى مرتبه رؤيه اللّه تعالى،و هى أشرف الحالات،و مع ذلك فليس لها ذلك الموقع فى النفوس.إن كل إنسان بل كل حيوان له قوه الرؤيا،قال:و إنما قال صلّى اللّه عليه و سلّم،على سبيل التمدّح:حتى ظهرت لمستوى سمعت فيه صريف الأقلام.و أتى بحرف الغايه الذى هو حتى إشاره لما قلناه من أن منتهى السير بالقدم المحسوس العرش.و اللّه تعالى أعلم».

و لما أراد الصوفيه تفسير المعراج جاءوا بقول لطيف على لسان ابن عربى حينما قال (1):«و من كان مؤمنا لا ينكر المعراج و لكن وقوع السير المذكور فى مقدار ذلك الزمن اليسير يشكل عند العقل بحسب الظاهر،و أمّا عند التحقيق فلا إشكال،أ لا ترى أن فى الوجود الإنسانى شيئا لطيفا،أعنى القلب،يسير من المشرق إلى المغرب بل فى جميع العوالم فى آن واحد،و هو بديهى لا ينكره من له أدنى تمييز حتى البله و الصبيان،أ فلا يجوز أن تحصل تلك اللطافه لوجود النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بقدره اللّه تعالى،فوقع ما وقع منه فى الزمن اليسير».

هكذا فسّر القدماء،علماء و مفسّرون و متكلّمه و متصوفه،معجزه الإسراء و المعراج،و نرى اختلاف منطقهم عن منطق المعجزه العلمى القائم على منطق العلم الحديث الذى يتحدّث عن الطاقه و السرعه و الكتله و نظريه النسبيه،فكيف نظر علماء العصر الحديث لهذه المعجزه!؟.

٢-معجزه الإسراء و المعراج و التفسير العلمى الحديث

لا شك أن محاوله تفسير معجزه الإسراء و المعراج فى إطار العلوم الحديثه و القوانين الفيزيائيه و الكيمياويه،و فى إطار علوم الفضاء و الفلك،هى محاوله قديمه

١- جواهر البحار-للنبهانى ج ٢،ص ٢٥۴،عن روح البيان للبروسوى.

ترجع إلی عام ۱۹۳۵ م،أی قبل أن تطرح نظریات الإعجاز العلمی،و قبل أن یلتقی العلم بالقرآن هـذا اللقاء الواسع الشامل،و هـذا یعنی أن هـذه المعجزه کانت بمقـدار ما هی مثیره للـدهشه و التعجّب بمظاهر الإعجاز العدیـده فیها،کانت بنفس المقـدار تشـغل انتباه العلماء و المفسّـرین المعاصـرین،و تقف أمامهم کتحـدّ علمی لقدرات الطاقه الإنسانیه العلمیه فی العالم کله،و إذا ما تذکرنا أن بدایه القرن العشـرین کانت دعوات النهضه و التحرّر و رفض الخرافات و الأفکار القدریه الیائسه التی کانت سائده فی تفاسیر القرآن القدیمه،و التی تریـد من الإنسان أن یؤمن بکل ما قیل و یقال له ما دام واردا کحاشیه علی نص القرآن الکریم،مما طمس المعالم الحقیقیه للهـدایه القرآنیه وسط غبار التراکم فی اللامعقولات القدیمه،إذا ما تذکّرنا کل هذا فلن نعجب أن تکون محاوله تفسـیر معجزه الإسـراء و المعراج،علی ضوء العلوم الحدیثه و قوانینها المعاصره،من المحاولات السبّاقه لطرح فکره التفسیر العلمی للقرآن حتی قبل أن یظهر هذا التفسیر بالمساحه الکافیه المقنعه آنذاک.لقد کان عام ۱۹۳۵ م هو عام صدور کتاب محمّد حسین هیکل عن«حیاه محمّد»،الذی حاول فیه أن یکون قریبا جدا من العقلیه العلمیه السائده آنذاک فی أوروبا،حتی أن کتابه هذا کان مـن أدق الکتب و أعمقهـا و أبعـدها عن الغرابه و التغریب الـتی کـانت محشـوه بهـا کتب السـیره النبـویه دون تمحیص علمی أو تـاریخی،لـذا فقـد کـان کتـابه هـذا من أوائل الکتب التی حاولت أن تقـدم حیاه الرّسول صـلّی اللّه علیه و سـلّم علی ضوء العلوم الاجتماعیه و التاریـخ و علم النفس،و ما یسـمی آنـذاک علم الأرواح و التنویم المغناطیسـی و الباراسـیکولوجی...إلخ،إضافه إلی بعض العلوم التطبیقیه.فکیف فسّـر هیکل معجزه الإسـراء و المعراج التی وصف تفسـیره لها بأنّه أول من فعل ذلک،و مـدحه علیه المقدم للکتاب محمّد مصطفی المراغی؟ إن المنهج الذی أشار إلیه محمّد مصطفی المراغی فی محاوله تفسیر القرآن علی ضوء العلم الحـدیث لهو جـدیر بالذکر حیث قال (۱):«یقول بعض علمـاء الکلام إن الاطلاع علی علم تشـریح الأفلاک و علم تشـریح الإنسان یدلّ أوضح دلاله علی شـمول العلم الإلهی لدقائق الوجود،و أنا أقرّر أیضا أن العلم و الکشف عن سـنن الوجود و عجائبه سیکون نصـیر الـدین،و سـیقرب إلی العقـل الإنسـانی طریق فهم مـا کـان غامضـا مبهمـا،و مـا کان فوق طاقه العقل و إدراکه من قبل،مصداقا لقوله تعالی۷.

۱- حیاه محمّد-محمّد حسین هیکل،ص ۷.

سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [فصلت۵۳/]،و الكهرباء،و ما نشأ عنها من المخترعات،قرّبت إلى العقل فهم إمكان تحوّل الماده إلى قوه،و تحوّل القوه إلى ماده،و علم استحضار الأرواح فسّر للناس شيئا كثيرا مما كانوا فيه يختلفون،و أعان على فهم تجرّد الروح و إمكان انفصالها،و فهم ما تستطيعه من السرعه فى طىّ الأبعاد،و قد انتفع الدكتور هيكل بشىء من هذا فى تقريب قصه الإسراء،فأتى بشىء طريف».

إنّه فعلا شىء طريف،و لكنه ليس من العلم فى شىء فى ضوء ما توصلنا إليه اليوم.يقول هيكل واصفا محاولته تلك:«و لصاحب هذا الرأى،أكثر من غيره،أن يسأل عن حكمه الإسراء و المعراج ما هى؟و هنا موضع الرأى الذى نريد أن نبديه و لا ندرى أسبقنا إليه أم لم نسبق؟».و هكذا يبدأ هيكل فصلا خاصا بعنوان«الإسراء و وحده الوجود»جاء فيه ما يلى (۱)«ففى الإسراء و المعراج فى حياه محمّد الروحيه معنى سام غايه السمو،معنى أكبر من هذا الذى يصوّرون،و الذى قد يشوب بعضه من خيال المتكلمه الخصب حظ غير قليل.فهذا الروح القوى قد اجتمعت فيه،فى ساعه الإسراء و المعراج،وحده هذا الوجود بالغه غايه كمالها،لم يقف أمام ذهن محمّد و روحه،فى تلك الساعه،حجاب من الزمان أو المكان أو غيرهما من الحجب،التى تجعل حكمنا نحن فى الحياه نسبيا محدودا بحدود قوانا المحسّه و المدبّره و العاقله،تداعت فى هذه الساعه كل الحدود أمام بصيره محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم، و اجتمع الكون كله فى روحه فوعاه منذ أزله إلى أبده،و صوّره فى تطوّر وحدته إلى الكمال عن طريق الخير و الفضل و الجمال و الحق فى مغالبتها و تغلّبها على الشر و النقص و القبح و الباطل بفضل من اللّه و مغفره،و ليس يستطيع هذا السموّ إلاّ قوه فوق ما تعرف الطبائع الإنسانيه،فإذا جاء بعد ذلك ممّن اتّبعوا محمّدا من عجز عن متابعته فى سموّ فكرته و قوه إحاطته بوحده الكون فى كماله،و فى جهاده لبلوغ هذا الكمال،فلا عجب فى ذلك و لا عيب فيه،و الممتازون من الناس و الموهوبون منهم درجات،و بلوغنا الحقيقه معرّض دائما لهذه الحدود التى تعجز قوانا عن تخطّيها..

و إذا كان القياس مع الفارق أن نذكر،لمناسبه ما نحن الآن بصدده،قصه أولئك المكفوفين الذين أرادوا أن يعرّفوا الفيل ما هو،فقال أحدهم:إنه حبل طويل،لأنه صادف ذنبه،و قال الآخر:إنه غليظ كالشجره،لأنه صادف رجله،و قال ثالث:إنه۱.

۱- حياه محمّد-محمّد حسين هيكل،ص ۱۳۱.

مدبّب كالرمح،لأنه صادف سنّه،و قال رابع:إنه مستدير ملتو كثير الحركه،لأنه صادف خرطومه،فإن هذا المثل،مقرونا إلى الصوره التى تتكون لدى المبصر من الفيل لأول ما يراه،يسمح لنا بالموازنه بين إدراك محمّد كنه وحده الكون و الوجود و تصويره فى الإسراء و المعراج،حيث يتصل بأول الزّمن من قبل آدم إلى آخره يوم البعث،و حيث تنعدم نهائيه المكان،إذ يطل بعين البصيره من لدن سدره المنتهى إلى هذا المكان يصبح أمامه سديما،و بين ما يستطيع الكثيرون إدراكه من حكمه هذا الإسراء و المعراج،إذ يقفون عند تفاصيل ليست من وحده الكون و حياته إلّا كذرات الجسم،بل كالذرات العالقه به من غير أن يتأثّر بها نظامه.أين الواحده من هذه الذرّات من حياه هذا الجسم و من نبض قلبه و إشراق روحه و ضياء ذهنه و امتلائه بالحياه التى لا تعرف حدا،لأنّها تتصل من الوجود بكل حياه الوجود؟و الإسراء بالروح هو فى معناه كالإسراء و المعراج بالروح جميعا سموّا و جمالا و جلالا،فهو تصوير قويّ للوحده الرّوحيه من أزل الوجود إلى أبده،فهذا التعريج على جبل سيناء،حيث كلّم اللّه موسى تكليما،و على بيت لحم،حيث ولد عيسى،و هذا الاجتماع الروحى ضمّت الصّلاه فيه محمّدا و عيسى و موسى و إبراهيم مظهر قوى لوحده الحياه الدينيه على أنّها من قوام وحده الكون فى موره الدائم إلى الكمال».

و بعد هذا الوصف اللطيف و المعانى الإنسانيه و الروحيه،ينتقل الدكتور هيكل للعلم كما يفهمه،فيقول (1):«و العلم فى عصرنا يقرّ هذا الإسراء بالرّوح،و يقرّ المعراج بالروح،فحيث تتقابل القوى السليمه يشعّ ضياء الحقيقه،كما أن تقابل قوى الكون فى صوره معينه قد طوع(لماركونى)،إذ سلّط تيارا كهربائيا خاصا من سفينته التى كانت راسيه بالبندقيه،أن يضىء بقوه الأثير مدينه سدنى فى أستراليا.و فى عصرنا هذا يقرّ العلم نظريات قراءه الأفكار و معرفه ما تنطوى عليه،كما يقرّ انتقال الأصوات على الأثير بالراديو و انتقال الصور و المكتوبات كذلك،مما كان يعتبر فيما مضى بعض أفانين الخيال.و ما تزال القوى الكمينه فى الكون تتكشّف لعلمنا كل يوم عن جديد،فإذا بلغ روح من القوّه و من السلطان ما بلغت نفس محمّد،فأسرى به اللّه ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك حوله ليريه من آياته، كان ذلك مما يقرّ العلم،و كانت حكمه ذلك هذه المعانى القويه الساميه فى جمالها و جلالها،و التى تصوّر الوحده الروحيه،و وحده الكون فى نفس محمّد تصويرا١.

١- حياه محمّد-محمّد حسين هيكل،ص ١٣١.

صریحا یستطیع الإنسان أن یصل إلی إدراکه إذا هو حاول السموّ بنفسه عن أوهام العاجله فی الحیاه،و حاول الوصول إلی کنه الحقیقه لیعرف مکانه و مکان العالم کله منها».

هکذا یفسّر هیکل الإسراء و المعراج بالروح فی إطار علومه و علوم عصره،أما إذا قیل له إن الإسراء کان بالجسد و الروح فلا یجیب إلّا بالعبارات الغامضه نفسها فیقول (۱):«و أحسبک لو سألت الذین یقولون بالإسراء بالروح فی هذا،لما رأوا فیه عجبا بعد الذی عرف العلم فی وقتنا الحاضر من إمکان التنویم المغناطیسی للتحدّث عن أشیاء واقعه فی جهات نائیه،فما بالک بروح یجمع وحده الحیاه الروحیه فی الکون کله،و یستطیع بما حباه اللّه من قوّه أن یتصل بسرّ الحیاه من أزل الکون إلی أبده».و هکذا نخرج من هذه المحاوله المسمّاه«علمیه»بأیدی فارغه، و الأسهل تفسیر الإسراء و المعراج بالرّوح عن طریق المتصوّفه المسلمین،من الأنفس،و لکنی أری أن محاولات تفسیر الإسراء و المعراج بالجسد،التی ذکرها الفخر الرازی فی تفسیره،أکثر قوه و إقناعا،بل و علمیّه،ممّا ذکره الدکتور هیکل فی محاولته،علما أنّ علم الأرواح و التنویم المغناطیسی،بعد هذا الزمن الیسیر من عمرهما،کشف الزیف و الکذب عنهما و عن مصداقیتهما.

علی أن هذه المفاهیم و المعانی لم تقف عند هذه الحدود الساذجه،بل کل یوم تأتینا تحلیلات جدیده و معان جدیده و محاولات تفسیر علمیه أو شبه علمیه، و سنقتصر علی ثلاثه نماذج ممن حاول أن یفهم معجزه الإسراء و المعراج فی إطار المفاهیم و المعانی التی یمکن استنتاجها منها.

النموذج الأول،هو السید سمیح عاطف الزین فی کتابه«خاتم النبیین محمّد»، و الذی یعتبر أن معجزه الإسراء و المعراج (۲)«جاءت لتکون ثانی حدثین اثنین فی تاریخ الأنبیاء و المرسلین الذین یحملون رسالات السماء إلی الأرض،حیث تم الاتصال المباشر من الخالق سبحانه و تعالی مع اثنین من هذه النخبه المختاره،حیث کان الاتصال الأول عند ما کلّم اللّه تعالی نبیه موسی علیه السّلام علی جبل الطور فی سیناء،و هذا هو الاتصال الثانی عند ما أسری اللّه سبحانه و تعالی بمحمّد صلّی اللّه علیه و سلّم حتی بلغ سدره المنتهی لیکون علی قاب قوسین أو أدنی،و لیری و یسمع و یتحدّث فی عروجه بما لم یره و لم یسمع به أو یتحدث عنه غیره من الخلق أجمعین».و بعد أن۷.

۱- حیاه محمّد-محمّد حسین هیکل،ص ۱۳۲.

۲- خاتم النبیین محمّد-سمیح عاطف الزین،ج ۲ ص ۶۳۷.

یؤکد سمیح الزین علی أن الإسراء و المعراج کان بالروح و الجسد،و لا مجال لتأویل النص القرآنی الصریح بما ینافیه،أو بما هو خرافه،بعد کل هذا یفسّر قناعته تلک بقوله (۱):«إن القدره الإلهیه قد أثبتت لبنی الإنسان،فی أکثر من زمان و فی حیاه الناس العادیین،أن فی حیاه النبیین و المرسلین لا شأن للقوانین و النّظم التی یعرفها أبناء البشر،لأنّها تقول للشیء(کن فیکون)،و هذه الإراده المطلقه التی خلقت هذا الکون العظیم،بما فیه من عوالم و آفاق،هی نفسها و وحدها التی نفّذت الإسراء و المعراج،و لا یمکن للعقل البشری أن یستغرب وقوع هذا الحدث العظیم عند ما یتذکّر بأن الإراده الإلهیه قد أعطت للنبی سلیمان علیه السّلام ملکا لم یعط لأحد من قبله و لا من بعده،فقد سخّرت له الریاح ذلولا یمتطیها علی بساط فتحمله حیث أراد فی جوانب الکره الأرضیه،و قد جعلت له الجن خدما و عبیدا یأتمرون بمشیئته».

و بعد أن یقارن الزین بین هذه المعجزه و معجزات الأنبیاء سلیمان و موسی و عیسی و إبراهیم و نوح،یعود إلی الاستنتاج (۲)«فما العروج بالشکل الذی سمعت إلاّ للدلاله علی إمکان الخروج من نطاق هذه الکره الأرضیه،التی تسبح فی الفضاء الذی یضمّ الملایین من أمثالها من الکواکب و الشموس و المجرّات الهائله التی تکبرها بملایین ملایین المرات،و ما هو أیضا إلاّ إشاره إلی قدره اللّه الخارقه لإیقاظ الغافلین،و لجعلهم یتفکّرون فی خلق السموات و الأرض و فی أنفسهم،یحیون علیها بتعاقب اللیل و النهار،إن هی إلاّ آیه صغری من آیات اللّه العظمی،و ما هو أخیرا إلاّ بمثابه إعجاز و إلفات نظر العالمین-سائر العالمین-بالأمس و الیوم و فی المستقبل، إلی أنه إذا تطورت وسائل السفر و الانتقال فإن الناس سیجترحون العجائب،لأن الإسراء و المعراج تم بواسطه نقل إلهیه اخترقت جاذبیه الأرض و طبقات الأثیر، و طوت المسافات فانعدمت أمامها المسافات،و طوت الزمن فانعدم أمامها الزمن، الذی لا دلیل علیه إلاّ تعاقب اللیل و النهار و طلوع القمر هلالا فی یوم سمیناه أول الشهر،و اختفاؤه فی یوم سمّیناه آخر الشهر،و لا دلیل علیه إلاّ تقسیم فترات بیاض النهار إلی ساعات تتحدّد بطلوع الشمس و مغیبها.هذا و قد حققت معجزه اللّه العظیم لنبیه الکریم فی رحله عظیمه کانت بالأمس القریب غریبه عجیبه،و صارت الیوم- و بعد غزو القمر مرارا و تکرارا-أقرب إلی الذهن و المعقول،و إن کانت تجد ذاتها و واقعها مدهشه مذهله کأکثر معجزات الأنبیاء و الرسل فی عالم التقدیر و الاعتبار.۹.

۱- خاتم النبیین محمّد-سمیح عاطف الزین،ج ۲ ص ۶۳۸.

۲- المصدر السابق،ج ۲ ص ۶۳۹.

و إذا كان للعقل الإنسانى أن يفهم بعض مدلولات المعراج فإنه،بالإضافه إلى اطمئنان نفس محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم و أنس قلبه للبرهان على الخروج من نطاق هذا الكوكب الأرضى الذى يسبح فى الفضاء،ليعرف الذين ينكرون البعث بأنهم غير باقين فى هذه الأرض بعد انحلال أجسامهم،و أنّهم لا شك مبعوثون،جسدا و روحا و نفسا،فى مكان ما من عوالم اللّه تعالى التى لا يعلمها إلّا هو سبحانه،و لكى يتفكّروا فى خلق السماوات و الأرض و ما يحيط بهنّ.فهذه الدلالات تعبّر عن الإسراء،أى الانتقال من مكان إلى مكان،بواسطه لا يعرفها البشر،و عن المعراج بنفس الواسطه التى تتحلّل من قوانين الجاذبيه و الأبعاد و الأعماق و المسافات،و ما إليها من القوانين التى تحكم تصرفات بنى البشر،و التى لا شأن لها عند إراده اللّه السنيه التى تقول للشىء كن فيكون.

و إذا كانت الإراده الإلهيه قد تجلّت و جعلت من الإسراء و المعراج وسيله كشف لإحدى وسائل المواصلات التى تفرض على الإنسان الإذعان لها و الرضوخ لحكمها فإنها،و هى إراده اللّه،قد جعلتها فتنه للناس لتثبت فى الروع أن الإنسان، مهما بلغ من العلم و المعرفه،عاجز عن الوصول إلى علم اللّه،و لكنه مدعو فى كل وقت للتوجّه نحو هذا العلم،و إلّا فقد ميزته التى خصّه اللّه تعالى بها عن سائر المخلوقات قليلا-عاجلا- أو آجلا-،للبحث عن الوصول لبعض تلك العوالم ليصل إلى معرفه عظيم صنع اللّه و قدرته،على أنه و إن قدّر للإنسان أن يفقه سرّ معجزه الإسراء و المعراج أو لم يقدر،و غالب الظن أن هذا السّر ما زال فى جوانب كثيره منه مغلقا على بنى البشر،فإنّها تظلّ الحدث العظيم الذى لا يمكن إنكاره و لا التنكّر له ما دام القرآن الكريم قد أثبته و أكّده بقوله تعالى وَ النَّجْمِ إِذا هَوى(١) ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى (٢)...[النجم٢،١]،و من هنا لم تكن حادثه الإسراء و المعراج المعجزه التى أريد منها قهر الناس على الاعتقاد بصدق نبوه محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم كما كان يحدث للأنبياء السابقين،و إلّا لكانت تلك الحادثه قد حصلت فى الظروف الحالكه الصعبه التى كان يعيشها النبىّ و المسلمون معه،و لا سيما المستضعفون منهم،بل كانت من أجل التكريم لشخص النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و الإيناس له،و من غير أن تعطّل المنهج العقلى الذى اشترعه القرآن».

هكذا فهم السيد سميح عاطف الزين واقعه و معجزه الإسراء و المعراج،و هو يضعنا على أبواب التعامل مع مفردات و مكتشفات العلوم و لكن من بعيد،و لا يدخل إلى التفاصيل الدقيقه للقضايا العلميه.

أما التفسير الأكثر قبولا منه،و الذى يلمس الجوانب العلميه أكثر،إضافه إلى الجوانب العقليه و المنطقيه،هو ما طرحه الشيخ محمّد متولى شعراوى،و سنحاول تلخيص رأيه بشكل دقيق،مع مقتطفات من نصوص أقواله و كلماته العميقه.و قبل أن يبدأ شعراوى فى تفسيره لآيه الإسراء،يعرض لموقع هذا الحدث و أثره فى الدعوه الإسلاميه،لكى يزنه بميزان الحدث التاريخى،فهو يؤكد«أن حدث الإسراء و المعراج يعتبر حدثا ضخما من أحداث الدعوه الإسلاميه،سبقته البعثه و جاءت بعده الهجره».إذن فهو يزنه بميزان البعثه و الهجره،و بعد أن يتحدّث عن أهميه كون هذه المعجزه كانت«نتيجه لجفوه الأرض لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم،و نتيجه لفقد النصير، و نتيجه لفقد الحامى،فاللّه سبحانه و تعالى شاء أن يجعل لرسول اللّه هذه الرحله العلويه حتى يثبت له تكريمه،و حتى يثبت له أن فى اللّه عوضا عن كل فاقد،و أن الملكوت سيحتفى به حفاوه،و يمسح عنه كل عناء هذه المتاعب،و سيعطيه شحنه قويه لتكون أداته فى منطلقه الجديد بإذن اللّه».

بعد ذلك يبدأ شعراوى بتفسير آيه الإسراء بتفسير كلمه سُبْحانَ و يقول (۱):إن معنى سبحان اللّه أن اللّه منزّه فى ذاته و فى صفاته و فى أفعاله،فإذا صدر فعل قال اللّه إنه صدر منّى،فيجب أن أنزهه أنا عن قوانين البشريه،و ألا أخضع فعل اللّه إلى قانون فعلى،و لذلك استهل السوره بقوله سُبْحانَ حتى يكون أول ما يقرع الإنسان لهذا الحدث العجيب الغريب،الذى تقف فيه العقول سُبْحانَ أى تنزيه،فإذا قال اللّه سُبْحانَ أى تنزيه لفعلى عن أفعالكم،معنى ذلك أن قانون اللّه فى الفعل ليس كقانوننا فى الفعل،ثم بعد ذلك أَسْرى به،فاللّه هو الذى أسرى و محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم هو الذى أسرى به،لما ذا لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا أى الإسراء كان لعله دافعه هى ليريه الآيات،و لما ذا يريه الآيات لأنه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .و هكذا،يستنتج شعراوى أن اللّه سمع الإيذاء الذى أوذى به رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم،و قد رأى اللّه ما تعرّض له من الجفاء و الاستهزاء،و من السخريه و من الإهانه،كل ذلك برؤيه و مسمع من اللّه،فحين رأى اللّه ذلك و سمع أراد أن يريه الآيات،فأسرى به.

ثم يأتى شعراوى إلى ما أسماه قانون الفاعل،حيث يقول بأن اللّه بقانونه أسرى بعبده إليه،فلا يصحّ أن نؤاخذ محمّدا صلّى اللّه عليه و سلّم بفعل فعله اللّه به،لأن محمّدا لم يقل أنا سريت،لكى نقول له كيف سريت بهذه السرعه و نحن نضرب أكباد الإبل شهرا۵.

۱- القرآن الكريم معجزه و منهج-محمّد متولى شعراوى،ص ۱۴۵.

و تفعلها أنت بليله.إذن فالاعتراض على الرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم خطأ،فليس هو الفاعل،و إنما هو اللّه،و فعل اللّه يكون حسب قوه اللّه،و قوه اللّه تلغى قانون فعل و قوه البشر المحدوده.و هكذا بنى شعراوى سرعه الإسراء بقوه اللّه على القول (۱)«المسافه تتناسب مع القوه تناسبا عكسيا،فكلما زادت القوه قلّت المسافه»،و القوه التى فعلت هى قوه اللّه تعالى،لذا نجد النتيجه(لا زمن).

إذن،كلما كانت قوه الفاعل،إذا كان بشريا-سياره طائره أو صاروخ-فإن المسافه تتناسب عكسيا مع هذه القوه،و تختصر الزمن حسب قوه الناقل،فأما إذا كانت هذه القوه خارقه،و هى قوه اللّه،إذن فإن المسافات تلغى و يلغى معها الزمن اللازم لقطعها.هكذا يفسّر شعراوى قدره اللّه فى الإسراء بتعاملها مع الزمن،كما أنه يستنتج،من اعتراض الكافرين على إمكانيه الإسراء،أنّه كان حقيقه و بالجسد لا بالمنام بقوله«فالكافرون بتعنّتهم أمام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خدمونا خدمه كبيره الآن،لأننا نقول لو كانت رؤيا مناميه لما ناقش فيها أحد،لأن أى واحد يقص عليك رؤيا، فقانون المرائى فوق قانون الماده اليقظه،فما دام قد ناقشوا فيها و وقفوا فيها هذه الوقفه فهم قد فهموا أنّها يقظه و بالجسم و الروح».

و إذا كان الغالب على تحليل شعراوى الجانب الروحى،و يعتمد على تحليل مفردات اللغه القرآنيه و ما يمكن أن تعنيه فى منتهى الاحتمال للمعنى،إلاّ أن الإسراء و المعراج بقى غامضا خاصه فى جانب السرعه و المسافه أو الزمن و المكان،و لما كان القرآن العشرون قد وصل إلى مفاهيم جديده جدا و غير مطروقه لدى القدماء و المحدثين،فلنحاول أن نأخذ آخر مفردات العلم المعاصر حول هذه المفاهيم، لنرى إمكانيه تفسير معجزه الإسراء و المعراج على ضوء النظريه النسبيه لأنشتاين، و خاصه فى مجال السرعه و الزمن و الماده،فكيف تفهم هذه الرحله الإلهيه على ضوء هذه المفردات العلميه؟ و حينما نصل إلى الحديث عن أكبر سرعه معروفه فى العلم الحديث،لكى نقيس بها سرعه حركه انتقال الرّسول الكريم صلّى اللّه عليه و سلّم على أحدث الاكتشافات العلميه المعاصره،فإننا نجد أن سرعه الضوء،البالغه ثلاثمائه ألف كيلومتر فى الثانيه،هى المقياس المستخدم و المكتشف فى فضاء السرعه،أما ما توصل الإنسان إلى تحقيقه الآن من سرعه فى سفن الفضاء الحاليه فإنّها لا تزيد على أربعين ألف كيلومتر فى۷.

۱- القرآن الكريم معجزه و منهج-محمّد متولى شعراوى،ص ۱۴۷.

الساعه،فأين هذه السرعه من السرعه التى انطلق بها جبريل عليه السّلام،و معه محمّد عليه الصّلاه و السلام فوق السفينه الكونيه العظمى ليله الإسراء و المعراج؟ هكذا يبدأ الدكتور عبد العليم عبد الرّحمن خضر فى كتابه«الإنسان فى الكون بين القرآن و العلم»فى الحديث عن معجزه الإسراء و المعراج،على ضوء النظريه النسبيه لأنشتاين،و سنستعرض آخر ما توصّل إليه،علما أنه يعتمد عدّه مصادر حديثه علميه،و يستشهد بأقوال علماء مسلمين و أجانب فى هذا الإطار.

و حينما ينطلق الدكتور عبد العليم من مفرده أن الناس عاده (۱)«حينما يتحدّثون عن معجزه الإسراء و المعراج يتحدّثون عن جانبها الذى يتعلّق بقطع المسافات و طى الزمان و العروج من سماء إلى سماء فى لحظات لا تعادل بالأيام و الشهور،و إنما بالساعات و الدقائق»،ليصل إلى القول«إذن،فالرحله رحله كونيه تفوق كل المقاييس التى عرفها أو سيعرفها البشر»فكيف فسّر،على ضوء العلم الحديث،هذه المعطيات؟ يبدأ الدكتور من مفرده أن البراق كان يسير بسرعه البرق-و قد يكون سمّى براقا لهذه الخاصيه-فيرى أن البرق ضوء،و سرعه الضوء ۱۰۸۰ مليون كيلومتر فى الساعه،فهل كانت سرعه البراق تساوى سرعه الضوء فقط؟و هل تكفى عده ساعات للسفر إلى سدره المنتهى ثم العوده إلى الأرض؟.و بعد أن يورد الدكتور تفسير قوله تعالى فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ(۱۶) وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ(۱۷) وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ(۱۸) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ (۱۹)[الانشقاق۱۶/-۱۹]بمعنى«لتركبن يا محمّد سماء بعد سماء»،كما فسّرها الطبرى و ابن كثير،يقول (۲):«و كان ركوب السماء بعد السماء ليله الإسراء و المعراج، و لا بد أن الطبق الذى ركبه الرسول الكريم و معه جبريل كان أسرع من الضوء نفسه، نظرا لضخامه الكون الذى تمثّله السموات،سماء بعد سماء،تتمثّل بتلك الضخامه فى قوله تعالى تَعْرُجُ الْمَلائِكَهُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَهٍ [المعارج۴/].و هكذا يعود الدكتور إلى القول (۳):«إن آيه الإسراء لم تذكر أن الرسول الكريم محمدا،عليه الصّلاه و السّلام،كان محمولا على شىء،إنّه كان يسبح فى الفضاء بقدره اللّه تعالى التى لا حدود لها،بعد أن أصبح حقيقه كونيه فى غير حالتها الأرضيه الناقصه.فإن كان قد قيل إنه ركب البراق،فقد يكون المقصود البرق أو أيّه۶.

۱- الإنسان فى الكون بين القرآن و العلم-د.عبد العليم عبد الرّحمن خضر،ص ۳۲۲.

۲- المصدر السابق،ص ۳۲۴.

۳- المصدر السابق،ص ۳۲۶.

قوه کهربیه،و لا یمکن فی حاله إسراء اللّه بعبده أن تجری أحکام الحواس و لا أحکام الماده».

و بعد أن یستشهد الدکتور بوجهه نظر الدکتور عبد الحلیم محمود فی کتابه دلائل النبوه،و رفضه لمفهوم السلالم للعروج إلی السماء،مستندا إلی أن العلم الحدیث أثبت«أن الماده الصلبه مجرّد کهارب فی رتبه اهتزاز معینه»،و أن الذین یریدون أن یفسّروا الإسراء و المعراج بالتصوّر المادی بالمطیّه للإسراء و السلالم للمعراج بسبب جهلهم هذه الحقیقه التی لو عرفوها«لما خدعتهم حقیقه الماده الصلبه التی تشبّثوا بها فی الإسراء علی البراق و المعراج علی السلالم،و لأمکنهم أن یتصوّروا إمکان الإسراء بلا مطیه و الصعود إلی السماء بلا سلالم».

بعد هذا،یعود الدکتور عبد العلیم لیناقش مسأله الزمن التی أنکر المشرکون حدوث الإسراء بناء علیها،فیقول«إننا إذا تخلّصنا من هذه الأرض المادیه و احتللنا مکانا مستقلا لا یربطنا بجاذبیتها و لا بقوانینها،فسوف لا نشعر بالزمن الذی تعوّدنا علیه و لا یصبح للعمر لدینا أی معنی،لأننا لن نعرف سوی اللازمن،أی الخلود،لا ماضی،لا مستقبل،و لکن الحاضر وحده هو الذی نعیش فیه»،و یستنتج الدکتور بأن رحله الإسراء و المعراج فی واقعها إنما هی«رحله کونیه إلهیه لا یمکن حسابها زمنا أو بعدا أو وسیله بحسابات البشر،إنها رحله فضائیه کامله تخطّت أبعاد الزمان و المکان من مکّه إلی بیت المقدس،و تمّت الرحله إلی السماوات العلی و بقایا دفء فراش الرّسول موجوده».و بعد أن یقارن الدکتور بین رحله الإنسان إلی القمر و غزوه للفضاء بسفن فضائیه تحمل أجهزه إلکترونیه للدراسات العلمیه عن المریخ و الزهره و المشتری،و مسأله الإسراء و المعراج،یصل إلی أن کل هذه الاکتشافات لا تفسّر روعه السرعه التی تمّت بها رحله الإسراء و المعراج،لذا نراه یعتقد«أن السفینه الإلهیه،التی حملت محمّدا علیه الصلاه و السّلام و جبریل،قد اخترقت دوائر بلایین المجرات حتی تصل إلی السماوات العلی و سدره المنتهی».

و للدلاله علی استحاله تفسیر هذه الرحله الکونیه الإلهیه یتعرّض الدکتور لشرح مساحه الکون الکبیر کما اکتشفه علم الفضاء و الفلک حدیثا،و الذی حتی الضوء بسرعته الخرافیه یحتاج إلی ملایین السنین الضوئیه لکی یقطعه،فکیف قطعه الرّسول الکریم فی ساعات معدوده؟ إن الإعجاز الحقیقی للإسراء و المعراج یظهر فی العلم الحدیث حینما نعرف مساحه الکون اللانهائیه کما اکتشفها العلم الحدیث.فإذا کان الکفار قد اعترضوا

على الإسراء،و هو مسيره ساعه فى الطياره الآن،فكيف سيكون إنكارهم لو عرفوا أبعاد السنين الضوئيه لمساحه الكون الممتد عبر مجراته و سدمه و نجومه؟لذا فإن الدكتور يشرح هذا الحجم الرهيب للسماوات بقوله«و يكفى دلاله على حجم السماوات الرهيب أن نقول إن العلماء،خلال نصف القرن الأخير،ابتكروا مناظير كبيره كشفت آلافا من المجموعات الكونيه،تتكوّن كل مجموعه من آلاف السدم، كل سديم يضم عشرات الملايين من النجوم و الأجرام السماويه»،و يرى علماء الفضاء أن نصف هذه السدم التى تسبح فى الكون إنما هى أعضاء فى مجموعات تشبه الكره يبلغ قطرها مليونين من السنين الضوئيه،فإذا كان الضوء يسافر خلال ساعه مسافه قدرها ١٠٨٠ مليون كيلومتر ،فكم تكون المسافه التى يقطعها فى اليوم و الشهر ثم السنه الواحده؟ثم كم هو رهيب حجم مجموعه السدم التى يبلغ قطرها مليونى سنه ضوئيه؟إن هذه المجموعه واحده من بلايين السدم التى تنتشر فى أرجاء الكون الفسيح،و من هذه المجموعات مجموعه تسمى(كوما)تبعد عن سديمنا بحوالى ۴۰۰ مليون سنه ضوئيه،و هى مجموعه ضخمه من السدم فى مركزها،و هى تسبح جميعا فى صوره تشبه الكره و يقول الفلكيون (١)،إن سدما جديده دائمه التكوّن قرب المركز،أو إن شئت قل إن الكون فى تمدد مستمر و اتساع دائم،و هناك حشود كرويه تظهر فى المناظير ككرات ضخمه هائله تشبه المجرات و لكنها أضخم منها حجما،و اكتشف عدد أقربها إلينا اثنتان هما سحابتا ماجلان الصغرى،قطرها يخترقه الضوء بسرعه ١٠٨٠ مليون كيلومتر فى الساعه لمده خمس و عشرين ألف سنه ضوئيه،و الكبرى يخترقه الضوء(أى سفينه تسير بسرعه الضوء)فى مده اثنين و ثلاثين ألف سنه ضوئيه...و إذا كانت هذه صفحه من مساحه الكون المكتشف حتى الآن و هو يتسع فى كل لحظه و يتمدد و يخلق مجرات جديده،لذا فإن الدكتور يعتقد «أن الأحسن احتمالا لتصور سرعه السفينه الإلهيه،التى قامت بتلك الرحله الكونيه الرهيبه خلال جزء من الليل،هو تسخير قانون النسبيه لحمل و إطلاق و عوده المركبه الفضائيه الإلهيه البراق»،أى أنه لما كان قد ثبت من نتائج قانون النسبيه الرياضيه ما معناه أنّه لو أتيحت لكائن أو جسم ما سرعه أكبر من سرعه الضوء لانمحت أمامه المسافات،مهما عظمت،و يقطعها فى زمن لا يذكر.

و بعد أن يشرح الدكتور مفهوم أنشتاين للزمن،الذى يعتبره ليس حقيقه قائمه٠.

١- الإنسان فى الكون بين القرآن و العلم-د.عبد العليم عبد الرّحمن خضر،ص ٣٣٠.

بذاتها و إنما هو من خواص الماده،و أن المستقبل قد يتصل بالحاضر،و قد يلحق بالماضى،لأنه فى كل لحظه نحن نقتطع من المستقبل و نضمه إلى الماضى،فلا ينقص هذا و لا يزيد هذا،لأن كلا منهما لا نهائى،و أن المستقبل يلتف على شكل دائره،و بذا يدخل فى الماضى،إذ أن الدائره علامه أبديه.و بناء على هذه النظريه تكون الظواهر التى تمر بنا بسرعه الضوء هى تلك التى اعتدنا أن نسميها إشعاعا،أما الأحداث المجسّمه التى تسير ببطء شديد فقد اعتدنا أن نسميها ماده،أو بحسب تعبير أنشتاين إن الماده هى عقل أو فراغ أو فضاء نقصت سرعته عن السرعه الطبيعيه للضوء و هى ٣٠٠ ألف كيلومتر فى الثانيه،و لو أن هذه الماده عادت تتذبذب بسرعه الضوء لاختلفت و لم تعد تدركها حواسنا.

و هكذا نرى أنه فى نظريه النسبيه أن الأشياء تبدو لراصد يسير بسرعه الضوء، إذا كانت تسير معه تبدو ماده صلبه،أن الأشياء التى تمر به بسرعه الضوء فتكون شعاعا إذا كان هو واقفا.

من خلال جميع هذه المفاهيم و المعلومات العلميه نرى أن رحله«كهذه أخذ فيها جبريل(و هو من نور)بيد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و عرج به إلى السماء الدنيا،ثم الثانيه ثم الثالثه فالرابعه فالخامسه فالسادسه ثم السابعه ثم إلى سدره المنتهى،رحله كهذه قطع فيها جبريل و صحبه بلايين البلايين من السنين الضوئيه فى بضع ساعات من الليل،حسب مقاييسنا الأرضيه،لا بدّ أن تكون السرعه و الوسيله غير ما يعرف البشر،و معنى ذلك أن الرسول الكريم عليه الصّلاه و السّلام،و معه ملك الوحى جبريل عليه السّلام،قد عرج بهما فى زمن لا يذكر بسرعه أعظم من سرعه الضوء، و التى لم يتوصّل إليها البشر بعد،بل لا يستطيعون مجرد التفكير فى كنهها رغم أن العلم و العلماء عرفوا أنّها موجوده فحسب».إذن،فعلم البشر مهما تقدم فلن يصل إلى سر السرعه الرهيبه التى انطلقت بها سفينه الفضاء الإلهيه.إنها رحله المعراج حيث تجاوز الرّسول الكريم صلّى اللّه عليه و سلّم الكون كله،و كان عند سدره المنتهى عندها جنه المأوى.

هكذا يصل الدكتور عبد العليم إلى أن كل العلوم المعاصره تعجز عن تفسير الإسراء و المعراج،و لعل آخر ما يكتشفه الدكتور من هذه الرحله هو«إنه لمن المذهل حقا أن يذكر القرآن الكريم أسفار الفضاء كلها على أنّها تتم فى مسارات منحنيه و ليست فى خطوط مباشره مستقيمه،يتضح ذلك فى جميع آيات(العروج)

التی ذکرها اللّه سبحانه و تعالی فی القرآن الکریم،نجد دائما أن اللّه سبحانه قد عبّر فی کتابه الکریم عن السبح فی الفضاء أو الارتفاع فی السماء بکلمه معراج أو عرج، و فی ذلک کشف هام».

إذن،فالإسراء و المعراج سیبقی المعجزه الخالده التی تتحدّی علم العلماء و اکتشاف المکتشفین،لأنها منتهی الاحتمال العقلی و النظری،و ستبقی تتحدث للعالم بمعطیاتها الخارقه حتی تقوم الساعه،کما ستبقی«آیتان من آیات اللّه فی الآفاق،و إشاره إلی قدرته المطلقه و انفراده وحده سبحانه بالخلق،و لمس لجوانب الحقیقه العلمیه التی تؤکّد رکوب الإنسان طبقا بعد طبق،أو أطباقا متعدده المراحل، و علی البشر جمیعا أن یعلموا أن کل ما وصل إلیه الإنسان من وسائل الرکوب، ابتداء من الناقه إلی الطبق،من صنع اللّه تعالی،یتمثّل فی قوله تعالی وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما یَرْکَبُونَ ،فإذا کانت الفلک تسبح فی البحار فإن الأطباق و الطائرات تسبح فی الهواء،و فوق الماده الکونیه التی تتخلل الأجرام السماویه،و بالقیاس یمکن القول إن الفلک«السفن»و مثلها الطائرات و سفن الفضاء،إنّها فلک هوائیه تسبح فی الهواء و الفضاء سبحا هادئا کأنّها تطفو علی صفحه الماء».

و هکذا تبقی المعجزه الخاصه الفردیه للرّسول الکریم صلّی اللّه علیه و سلّم،تتحدّث لهذا العصر المغرور بمعلوماته،و تکنولوجیته و فرضیاته العلمیه بمنطق الخارقیه التی لا- تصل إلی حافاتها أی قدره إنسانیه مهما وصلت فی التقدم العلمی،و مهما تطوّرت وسائل مواصلاتها و انتقالها،و هذا یعنی أن عصرنا له معجزته أیضا،و له إعجازه،و أن خاتم النبیین لم یمض و یدع العالم عند حدود معجزاته فی زمنه،بل لا زال یتحدث إلیهم داعیا إلی اللّه بمعجزاته،و سیبقی ما دام لا نبیّ بعده،دلیل الخلق إلی اللّه حتی قیام الساعه.

ص: ۱۰۸

المصادر و المراجع

۱-الشفا فی أحوال المصطفی:القاضی عیاض الأندلسی،ط ۱۹۸۶،دار الفیحاء، الأردن.

۲-مختصر تفسیر ابن کثیر:محمد علی الصابونی،ط ۱،مکتبه جده.

۳-الدر المنثور فی التفسیر بالمأثور:السیوطی،ط ۱۹۸۳،دار الفکر،بیروت.

۴-الإیمان و العلم الحدیث:محمد حسین الأدیب،ط ۱۹۵۵،النجف.

۵-إعجاز القرآن:الباقلانی،ط ۱۹۸۶،مؤسسه الکتب الثقافیه،بیروت.

۶-تفسیر ابن تیمیه-التفسیر الکبیر:ابن تیمیه،ط ۱۹۸۸،دار الکتب العلمیه، بیروت.

۷-القرآن معجزه و منهج:محمد متولی شعراوی،ط ۱۹۸۴،دار الندوه،بیروت.

۸-المعجزه القرآنیه:د.محمد حسن هیتو،۱۹۸۹،مؤسسه الرساله،بیروت.

۹-علم أصول الفقه:عبد اللّه خلاف،ط ۸،دار القلم.

۱۰-هذا هو الإسلام:محمد متولی شعراوی،ط ۱۹۸۷،الدار المصریه للنشر،مصر.

۱۱-تطور تفسیر القرآن:د.محسن عبد الحمید،ط ۱۴۰۸،بغداد.

۱۲-الفلسفه القرآنیه:عباس محمود العقاد،المکتبه العصریه،بیروت.

۱۳-الفکر الدینی فی مواجهه العصر:د.محمد عفت الشرقاوی،ط ۱۹۷۹،دار العوده،بیروت.

۱۴-التاج الجامع للأصول:منصور علی ناصف،ط ۱۹۶۲،دار إحیاء التراث العربی.

۱۵-تفسیر مفردات القرآن:سمیح عاطف الزین،ط ۱۹۸۴،دار الکتاب اللبنانی، بیروت.

۱۶-أصول التفسیر و قواعده:خالد عبد الرحمن العک،ط ۱۹۸۶،دار النفائس، بیروت.

۱۷-معترک الأقران فی إعجاز القرآن،السیوطی،ط ۱۹۸۸،دار الکتب العلمیه، بیروت.

۱۸-نحو منهج لتفسیر القرآن:محمد الصادق عرجون،ط ۱۹۷۷،الدار السعودیه للنشر و التوزیع،جده.

۱۹-شطحات مصطفی محمود فی تفسیراته العصریه للقرآن الکریم:د.عبد المتعال الجیری،ط دار الاعتصام.

۲۰-الإنسان فی الکون بین القرآن و العلم:د.عبد العلیم عبد الرحمن خضر، ط ۱۹۸۳،عالم المعرفه،السعودیه.

۲۱-القرآن تفسیر الکون و الحیاه:محمد العفیفی،ط ۱۹۸۶،ذات السّلاسل، الکویت.

۲۲-معالم القرآن فی عوالم الأکوان:أحمد محیی الدین العجوز،ط ۱۹۸۷،دار الندوه الجدیده،بیروت.

۲۳-محمد رسول اللّه:محمد رشید رضا،ط ۱۹۷۵،بیروت.

۲۴-زاد المعاد فی هدی خیر العباد:ابن قیم الجوزیه،ط ۱۹۸۶،مؤسسه الرساله، بیروت.

۲۵-تفسیر الفخر الرازی:ط ۱۹۸۵،دار الفکر،بیروت.

۲۶-حیاه محمد،محمد حسین هیکل،ط مصر.

۲۷-جواهر البحار:النهبانی،ط ۱۹۶۰،مصطفی البابی الحلبی مصر.

۲۸-خاتم النبیین محمد:سمیح عاطف الزین،ط ۱۹۸۶،دار الکتاب اللبنانی، بیروت.

۲۹-تفسیر روح المعانی:الآلوسی،ط ۱۹۸۷،دار الفکر،بیروت.

۳۰-مناهل العرفان فی علوم القرآن:محمد عبد العظیم الزرقانی،ط ۱،دار الکتب اللبنانی،بیروت.

۳۱-الأصول الفکریه للثقافه الإسلامیه:د.محمود الخالدی،ط ۱۹۸۴،دار الفکر للنشر و التوزیع،عمان.

الفهرس

الموضوع الصفحه المقدمه ۵ المقدمه الفکریه:ضروره المعجزه بین مفهوم شمولیه الرساله و خاتم النبیین ۱۱ البعد التاریخی:

الإعجاز العلمی من کتب الإعجاز حتی التفسیر العصری ۲۳ التطبیق العملی:من نظریه المنهج إلی التطبیقات العملیه ۴۵ الإعجاز العلمی فی الإسراء و المعراج ۸۶ ۱-معجزه الإسراء و المعراج و تفسیرها لدی القدامی أ-التفسیر العقلی ۹۱ ب-التفسیر الصوفی ۹۴ ۲-معجزه الإسراء و المعراج و التفسیر العلمی الحدیث ۹۵ المصادر و المراجع ۱۰۹

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِی الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ۹

عنوان المكتب المركزی

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلی، الرقم ۱۲۹، الطبقة الأولی.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونی : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزی ۰۳۱۳۴۴۹۰۱۲۵

هاتف المكتب فی طهران ۸۸۳۱۸۷۲۲ ـ ۰۲۱

قسم البيع ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹شؤون المستخدمين ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹.

مركز
القائمية
اصبهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاءِ من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹